جامعة: جنوب الوادي-فرع الغردقة

كلية التربية

---

# محاضرات فى الأدب العباسي والأندلسي

الفرقة: الثالثة (عام) لغة عربية

إعداد/

قسم اللغة العربية

٢٠٢٢م/٢٠٢٣م

# بيانات المقرر

**الكلية**: التربية بالغردقة.

**الفرقة**: الثالثة.

**التخصص**: عام لغة عربية.

**التاريخ**: ٢٠٢٢-٢٠٢٣م.

**عدد الصفحات**: ١٨١ صفحة.

**عدد ساعات المقرر**: ٦ ساعات.

**الإعداد**: قسم اللغة العربية.

*********

## رؤية الكلية:

كلية التربية بالغردقة مؤسسة رائدة محليًا ودوليًا في مجالات التعليم، والبحث العلمي وخدمة المجتمع، بما يؤهلها للمنافسة علي المستوي: المحلي، والإقليمي، والعالمي.

## رسالة الكلية:

تلتزم كلية التربية بالغردقة بإعداد المعلم أكاديميًا ومهنيًا وثقافيًا من خلال برامجها المتميزة بما يؤهله للمنافسة والتميز في مجتمع المعرفة والتكنولوجيا، ومواجهة متطلبات سوق العمل محليًا وإقليميًا، وتهتم بتطوير مهارات الباحثين بما يحقق التنمية المهنية المستدامة، وتوفير خدمات تربوية لتحقيق الشراكة بين الكلية والمجتمع.

********

# مقدمة:

إنَّ تاريخ الأدب العربي هو العصور التي مرّت على الأدب العربي منذ بداياته التي وصلتْ، وهي البدايات الجاهلية النثرية والشعرية إلى هذا العصر، وتاريخ الأدب العربي يتضمن كلَّ النتاجات الأدبية في هذه العصور من شعر وقصة ومقامة ومسرح ورواية وخطب ووصايا وموشّحات، إضافة إلى المنافرات والنقائض وغير ذلك، ويسلّط تاريخ الأدب العربي الضوء على أسباب انحدار الأدب في بعض العصور القديمة، وازدهاره في عصور أخرى، ويضمُّ تاريخ الأدب العربي أيضًا سير الشعراء العرب والأدباء العرب بشكل عام وطرائفهم وحكاياتهم.

ويتَقَسَّم تاريخ الأدب العربي منذ بداياته وفقًا للعصور التي مرَّ بها، وهي: الأدب الجاهلي، أدب صدر الإسلام، الأدب الأمويّ، الأدب العباسي، الأدب الأندلسي، أدب عصور الدول المتتابعة، الأدب الحديث، ولكلِّ عصر مقوماته الخاصة وشعراؤه وأساليب شعرائه الخاصة بهم، ولهذا كان لزامًا على دارس الأدب العربي أن يمرَّ على كلِّ هذه العصور ويتعرّف على شعرائها وأساليبهم وحكاياتهم وسيرهم.

ويمكنُ تقسيم شعراء العرب وفقًا للعصور التي ينتمون إليها، فالحديث عن أشهر شعراء العرب حديث طويل، يمكن حصرُهُ في ذكر العصر وأبرز شعراء هذا العصر، ويكون هذا على الشكل الآتي: الأدب الجاهلي: إنَّ أشهر شعراء العرب الجاهليين هم: امرؤ القيس، الأعشى، عنترة بن شداد، النابغة الذبياني، طرفة بن العبد، الشنفرى، عمرو بن كلثوم، زهير بن أبي سُلمى، وأشهر شعراء أدب صدر الإسلام هم: حسان بن ثابت، عبد الله بن رواحة، كعب بن زهير، الحُطَيئة، ومن أشهر شعراء العصر الأمويّ هم: الأخطل الكبير، الفرزدق، جرير، الراعي النميري، عمر بن أبي ربيعة، أبو صخر

الهذلي، كثيّر عزّة، ذو الرمّة، الوليد بن يزيد، ومن أشهر شعراء العصر العباسي هم: أبو الطَّيب المتنبي، أبو فراس الحمداني، أبو العلاء المعري، أبو نواس، ابن الرومي، ومن أشهر شعراء الأندلس هم: أبو البقاء الرندي، ابن هانئ الأندلسي، ابن خلدون، ولادة بنت المستكفي، ابن عبد ربه.

ثم عصر الدول المتتابعة: وهي الدول التي حكمت البلاد العربية في الفترة ما بين خروج العرب من الأندلس ونشوء الدولة العثمانية، وهذه الدول هي الفاطمية والزنكية والأيوبية والمملوكية، وأشهر شعراء هذا العصر: ابن الفارض، الشريف الرضي، العماد الأصفهاني، وأبرز شعراء العصر الحديث: أحمد شوقي، نزار قباني، عمر أبو ريشة، محمد مهدي الجواهري، عبد الرزاق عبد الواحد، محمود درويش، جبران خليل جبران، إيليا أبو ماضي، بشارة الخوري الأخطل الصغير، بدر شاكر السياب، أمل دنقل.

ويمكن القول: إن روائع الأدب العربي إنَّ الحديث عن روائع الأدب العربي هو حديث ذوقيٌّ، يعتمد على ذائقة الإنسان، فقد يرى شخص ما قصيدة ما من روائع الأدب العربي ويراها آخر قصيدة عادية ولا ترقى للمستوى الذي رآها به الأول.

وقد درست عزيزي الطالب العصر الجاهلي، ثم الإسلامي والأموي، وإليك مدخل إلى الأدب العباسي.

**وفقكم الله وسدد خطاكم**

# الباب الأول
# حول الأدب العباسي

# الفصل الأول

# العصر العباسي الأول

## أولا: الشعر والشعراء

إن الأدب لسان حال العصر وترجمان المحيط، فإذا شئنا أن ندرس درسًا واضحًا أدبَ هذا العصرِ العباسي علينا أن نوطئ له بدرس عن حضارته.

لم يكن شعب هذا العصر عربيًّا قحًّا، ولا فارسيًّا خالصًا، بل مزيج من الشعبين وغيرهما من الشعوب التي كانت تسكن العراق وتعمل في أرضه، وهي مكونة من العقلية العربية والفارسية والسامية القديمة، متأثرة بالديانة المسيحية وثقافة اليونانيين، ولذلك كانت مخالفة كل المخالفة لحياة العرب في عهد بني أمية، فكان الفرق عظيمًا جدًّا بين الحياتين، فلذلك ضعف أثر الحياة البدوية الخالصة في هذا الجيل من أهل العراق، وتأثر جدًّا بالحضارة الفارسية القديمة، فنشأ عن ذلك، وعن ذهاب سلطة العرب؛ تمتُّع أهل هذا الجيل الجديد بكل ما كان لا يتمتع فيه العربي في العهد الماضي، فاستوى فيه الغالب والمغلوب في كل شيء، فتضاءلت سلطة الدين الإسلامي، لحداثة القوم فيه ولتأثير ديانتهم القديمة الموروثة عليهم، وكانت لغتهم أيضًا بين الفصاحة الخالصة والرطانة الأعجمية.

والفرق بين هذا الجيل والجيل الذي تقدمه، أن هذا ظهر فيه ميل شديد للحياة العلمية، فانتشر العلم وتنوع، فمنه ما حدث ومنه ما نما وارتقى، ومنه ما نقل، فمحَّصوه ودرسوه حتى هضموه وطبعوه بطابع عربي خاص، وكان في العصر الأموي علم، ولكنه كان إسلاميًّا محضًا، وهو يسير وساذج، أما في هذا الجيل فكثرت وتشعبت فروعه.

وبعد هذا الجيل عهد الأدب بالبداوة العربية، فقلَّ حظه من السذاجة فتكلف وتعقد، وظهرت آثار التعمل فيه، بعدما كان ساذجًا، وبعد الطبع، والسجية الحرة الخالصة، ونشأت في الأدب فروع وفنون، لم تكن معروفة من قبل إلا قليلًا.

**والخلاصة:** قد تطور كل شيء تطورًا يلائم البيئة والعقل والدين.

**أما الشعر:** فلم يضعف في هذا العصر، بل قوي ونما وتطور في ألفاظه ومعانيه وأوزانه وقوافيه وأغراضه وفنونه.

**ألفاظه:** رقَّت وسهلت فبعدت جدًّا عن ألفاظ الشعراء في العصر الإسلامي أيام جرير والفرزدق والأخطل، فإذا قرأت شعر بعضهم كمسلم بن الوليد وأبي العتاهية والعباس بن الأحنف فكأنك تقرأ كلامًا منثورًا، لولا الوزن والقافية.

**معانيه:** تطورت معاني الشعر فانصرفوا عن المعاني البدوية، أو المعاني البدوية المتأثرة بالحضارة، إلى المعاني الحضرية الصرف، فبعد أن كان الشعر الإسلامي يصدر عن الطبع بلا تكلف، أصبح متحضرًا يسيطر عليه العقل، ويرده إلى ميدان الخيال الفسيح، وإذا عدا الشاعر ذلك عدوه منه تقصيرًا عن الإتقان الفني.

**أوزانه:** ورغب الشعراء عن الأوزان الطويلة، وفضلوا عليها الخفيفة السهلة القصيرة، ولاءموا بينها وبين موضوعاتهم، فاختاروا للغزل والمجون أوزانًا تلائمها، وإذا مدحوا الخلفاء والوزراء أو رثوا أو جدُّوا في أمر، فضلوا الأوزان الطويلة، ويسروا على أنفسهم في القوافي، واختاروا أسهل الألفاظ وأحبها للسمع، وتجنبوا عيوب الشعر: كالإيطاء والإقواء والإكفاء والسناد.

**أغراضه:**

**الشعر السياسي:**

لم يطل عهد الشعر السياسي في هذا العصر إذ لم تبقَ حاجة إليه، ورغب الخلفاء عنه فأصبح الشاعر لدى الخليفة كالنديم له، وذلك بعد انحلال الأحزاب، فضعف الشعر السياسي حتى أصبح كنوع من الهجاء يقوله الشاعر متقيًا، عند سنوح الفرصة.

**الغزل:**

أما الغزل العذري، فامَّحى إلا قليلًا؛ لأن العفة والطهارة لم تكن من مميزات هذا العصر، فالجواري والغلمان كانت تباع في الأسواق بيع السلع، أما الغزل العادي فتطور ولم يعد صورة صادقة للعاطفة وميل النفس، وبقي محفوظًا كفنٍّ موروث لا ينبغي أن يضيع، وظهرت بدعة جديدة في الغزل، استنبطها فساد البيئة وكثرة الرقيق، وهذا الغزل هو المعروف بغزل المذكر، وهو وصمة في جبين أدبنا.

**الهجاء:**

أما الهجاء فازداد قبحًا وإقذاعًا وفحشًا يبحث فيه عن السيئات.

**المدح:**

وأما المدح فتجاوزت فيه المبالغة الحد، وبعد فيه الشعراء عن الاعتدال الذي هو من مميزات الطبع العربي الخالص، فانحطَّ به بعض الشعراء واتخذوه أداة لكسبهم بلا حياء ولا كرامة.

**المجون:**

وأشد الشعر نموًّا في هذا العصر، شعر المجون ووصف الخمر، وهو ما نسميه بشعر القصور، فتهالك الناس عليه لفساد أخلاقهم وانحلال روابطهم الاجتماعية، وتسلط الإماء على الحياة المنزلية واستئثارهن بمكان الحرائر، وإتقانهن العربية وآدابها، وبروزهن للناس واشتراكهن في حياة العبث واللهو جهرًا، وتسلط الرقيق من غلمان الترك والروم على نفوس الزعماء والسادة، حتى صاروا يدبرون القصور والثروة كما يرغبون، وساعد أيضًا على

اشتداد هذا النوع من الشعر، ظهور المذاهب الفلسفية والمقالات الدينية وتسلط الشك على النفوس.

**الزهد:**

وظهر فن جديد، وهو الزهد، دعا إليه اتصال العرب بالفرس وانتشار الحكمة الفلسفية الفارسية والهندية، ظهر في شعر أبي العتاهية، كما ظهر في نثر ابن المقفع.

**الشعر التعليمي:**

وظهر نوع جديد من الشعر هو الشعر التعليمي؛ أي نظم فنون العلم شعرًا ليسهل حفظها؛ كنظم كليلة ودمنة، وقصائد في الفقه.

**الوصف:**

أما الشعر الوصفي فتبدل واشتد، فبعد أن كان البدوي يصف ناقته وخيله وصحراءه، وصفوا الحضارة وقصورها والبساتين والخمارات والكئوس والصيد، فوصفوا هذا الأخير كما كان يفعل الفرس، فدققوا في وصف الكلاب والجوارح، وكان الرجز أداة لهذا الوصف، وشعراء هذا العصر طبقات يتبع بعضها بعضًا، ولكل طبقة زعماء، وزعماء أولى هذه الطبقات ثلاثة: بشار ابن برد، والسيد الحِمْيَري، ومروان بن أبي حفصة.

## (١) بشار بن برد:

**نسبه:** بشار بن برد بن يرجوخ، كنيته أبو معاذ، لقبه المرعث، أبوه مولى امرأة عقيلية، حرفة أبيه طيان، فبشار عربي عجمي، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كثير التبرم بالناس لعماه، متلون في ولائه، يكره العرب ويحث الشعوب على كرههم، ويتعصب لهم أحيانًا ويتشيع للعلويين، كان الناس يزدرونه حتى يخرج عن طوره، ولولا خوفهم لسانه ما انفكوا عنه.

**شخصيته:** ضخم مجدور طويل جاحظ العينين يغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس منظرًا وعمى، وفيه يقول حماد عجرد:

**وأعمى يشبه القرد  إذا ما عمي القرد**

لم يرَ الدنيا قط، وقال والده إنه لم يرَ مولودًا أعظم بركة منه، وكان متوقد الذهن ذكي القلب، وقد زعم أن العمى يقوي الذكاء فيتوفر الحس وتذكو القريحة، وقد قال الشعر وهو ابن عشر سنين، وما بلغ الحلم حتى هابه الناس للسانه، هجا جريرًا ولم يردَّ عليه.

**زعامة الشعر**: قلَّده إياها رجال عصره لأسباب: هجوه العلماء، اتباع أسلوب البادية وألفاظهم، وتحضير الشعر، كثرة المعلمين عليه، غزله الرقيق الذي أحبه الظرفاء والخالعون ورووه فهبت ريحه، أضف إلى ذلك ما لبشار من صنعة وفن، وقد قال فيه الجاحظ: كان بشار يدين بالرجعة، ويكفِّر الأمة، ويقدِّم النار على الطين، حيث قال:

**الأرض مظلمة والنار مشرقة  والنار معبودة مذ كانت النار**

وكان الأصمعي يشبهه بالنابغة والأعشى، ويقول عنه خاتمة الشعراء.

**ادعاؤه:** معتد بنفسه يرى فيها كل ذكاء، يرى نفسه أشعر الناس وعلى الناس أن يقولوا ذلك ويعترفوا به، وقد قال عن نفسه: من أين يأتيني الخطأ وقد نشأت في حجر ٨٠ شيخًا من بني عقيل الفصحاء، ونساؤهم أفصح منهم.

ومع هذا نرى لبشار شعرًا ركيكًا مبتذلًا لا يقوله فصحاء العرب، كقوله:

**ربابة ربـــة البيت  تصب الخل في الزيت**

**لها عشر دجاجات  وديك حسن الصـــوت**

وقوله:

**إنما عظم سليمي قصب قصب السكر لا عظم الجمل**

**فإذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل**

**بشار والنحاة:** انتقده الأخفش فهجاه، فاسترضاه وسكت عنه، وصار يحتج بشعره، وكذلك فعل بسيبويه.

**استهتاره:** كان مستهترًا في شعره، خالعًا فاحشًا، فنهاه الخليفة المهدي عن الغزل والتشبب بالنساء وإغرائهن على الفحشاء، وكان قليل الدين لا يصلي، وقد امتحن ذلك أصحابه بوضعهم ترابًا على ثيابه فيرونه لم يقم، وقد سئل في ذلك فقال: الذي يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة.

**نباهته:** جاءه رجل يسأله عن بيت فجعل يفهمه فلم يفهم، فقاده إلى السبيل حتى أوصله وقال له هذا البيت:

**أعمى يقود بصيرًا لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه**

**صدقه:** كان بشار يقول الشعر عن غير عاطفة، فهو غير صادق في لهجته، قال ابن الصياح: دخلت على بشار وهو منبطح في دهليزه كأنه جاموس، فقلت له: يا أبا معاذ، من القائل:

**في حلتي جسم فتي ناحل لو هبت الريح به طاحا**

قال: أنا، قلت: ما الذي حملك على هذا الكذب، وإنني لأرى أن لو بعث الله الرياح الأربع التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من مدخلك؟ وقس على هذا من شعر بشار.

**كيف مات:** هجا المهدي لأنه لم يجزه، ولأنه لا يرعى حرمة محسن أو مسيء، بل يهجو أيًّا كان بسبب وبلا سبب، وكان هجا المهدي ووزيره يعقوب بن داود معًا بقوله:

**بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفـــــــة يعقوب بن داود**

**ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الرقِّ والعود**

فلما أخبره يعقوب بالهجاء، انحدر إلى البصرة للنظر في أمرها، فسمع أذانًا في وقت ضحى النهار، فقال: انظروا ما هذا الأذان، فقالوا له: بشار يؤذن وهو سكران، فأمر بجلده ٧٠ سوطًا، فكان إذا أوجعه السوط قال: حس، فقالوا: يا أمير المؤمنين انظر إلى زندقته فإنه لا يسمِّي، فقال بشار: ويحكم!

أطعام هو فأسمِّي عليه، فلما ضرب ٧٠ سوطًا بان الموت فيه، فألقي في سفينة حتى مات، ثم رمي في البطيحة.

**بغض الناس له:** فلما علم أهل البصرة بموته هنَّأ بعضهم بعضًا، وفي حياته كان السعيد منهم من لا يعرف بشارًا، ولم يمش في جنازته غير جارية له، وفيه يقول شاعر من قصيدة:

**بل زعموا أن أهله فرحًا لما أتاهم نعيه سجدوا**

**سخريته:** أنشد المهدي قصيدة، وكان خال المهدي ضعيف العقل، فأقبل على بشار يسأله: ما صناعتك؟ فأجابه بشار: أثقب اللؤلؤ، فضحك المهدي وقال له: أتتنادر على خالي؟ فقال بشار: وماذا أصنع به، ألم يرني رجلًا أعمى؟ رمَحَت رجلًا بغلة، فقال: الحمد لله شكرًا، فقال له بشار: استزده يزدك، ومر قوم يحملون جنازة مسرعين بها، فقال بشار: ما لهم مسرعين، أتراهم سرقوه؟ أنفق غلامه عشرة دراهم على جلاء مرآته، فتعجب بشار من جلاء مرآة لأعمى، فقال: لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة، ما دفعت أجرة من يجلوها ١٠ دراهم.

**سرعة خاطر:** قالت له زوجته: لماذا يهابك الناس على قبح وجهك؟ فقال: ليس من حسنه يُهاب الأسد، وقد كان جالسًا أمام بيته وبيده مخصرة وأمامه طبق تفاح، فحاول أحدهم سرقته، فضربه بالقضيب، فقال له الرجل: أوَ أنت أعمى؟! فأجابه: يا أحمق، وأين الحس؟!

**نفسيته:** مجَّان مازح، وإنما مزحه مؤلم، كان في السبعين كأنه في ريعان صباه، والدليل أذانه وهو سكران، كان خليعًا شهوانيًّا، شَرِه في الملذات هائج العاطفة أبدًا، تدل على ذلك أشعاره، جريء جسور لا يستحي «الحيا في النظر» غير صبور وغير متقن لعمله، والدليل على ذلك إدخاله في شعره ألفاظًا لا أصل لها، جبان ثقيل الظل يخاف على روحه أيما خوف لأنانيته

وحبه لذاته، وكان يهجو ليعيش لا لأنه يحب الهجاء، وهجاؤه مجموعة عيوب يضعها فيمن ينقم عليه أو يطمع بماله.

**شعره:** وصف وقائع حال تأتي عفوًا بلا تفكير وكد ذهن، غزله وصف أشياء ظاهرة كالألوان والمحسوسات وبعض الحركات، لا يفهم من الحب إلا المادة فقط، فغزله لا يمثل عاطفة بل التهالك على اللذات والاستقتال في سبيلها، غزير المادة، غير متكلف في ألفاظه ومعانيه، شعره كله ترغيب في الفجور، كل هجائه فحش، ونكتته تضحك وتؤلم معًا، جمع جزالة العرب إلى فن المحدثين، ليِّن إذا تغزل أو هزل، متين إذا مدح، مدحه لا يخلو من هجاء.

### (٢) السيد الحميري:

نشأ في العصر الأموي، وقال الشعر وأجاده في العصر العباسي، شيعي المذهب، قال أكثر شعره في الإمام علي وبنيه، ومدح العباسيين وأخذ جوائزهم، وكان يجاهر بحضرة العباسيين بحب علي وبنيه، بيد أنه يكره أعداءهم الأمويين ويفضلهم عليهم ويستبشر بعهدهم.

**صفاته:** كان ضعيف العقل، مضطرب النفس، شعره سهل، ومعانيه منها الجيد والمبتذل، مات ١٧٣.

### (٣) مروان بن أبي حفصة:

فارسي الأصل، نشأ في العصر الأموي، إلا أن تفوقه في الشعر لم يظهر إلا أيام العباسيين، لم يترك اليمامة التي نشأ فيها، فظل بعيدًا عن التأثير الفارسي، ولذلك تظهر في شعره الرصانة والمتانة، فهو جزل اللفظ صلب المعنى كشعراء المسلمين الكبار، وقد مدح في أول عهده معن بن زائدة، فأجزل عطاءه.

**هدفه:** ولما طار صيته، ذهب إلى العراق ومدح الخلفاء العباسيين، ووجَّه هذا المدح نحو الدفاع عن الخلافة العباسية، وإنكار حق العلويين فيها، فأجزلوا له العطاء، وكانوا يشترون منه البيت بألف درهم، وقد كان يجوِّد شعره ويبطئ في قوله، وأشهر بيت قاله في الدفاع عن حق العباسيين بالخلافة:

**أنَّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام**

لقد كان تأثير الفرس في هؤلاء قويًّا؛ وخصوصًا بشار بن برد والحميري، أما تأثرهم باليونان فكان ضئيلًا بالنسبة للطبقة التي جاءت بعدهم، وزعماؤها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد.

**(٤) أبو نواس**:

هو الحسن بن هانئ، تلميذ والبة الحباب.

**كنيته:** الأولى أبو علي، إنما قال له خلف الأحمر الذي كان شديد الميل إليه: أنت من أشراف اليمن فتكنَّ بالذوين، فتكنَّى بذي نواس.

**تربيته:** لسوء حظ الأدب، لم ينشأ نشأة صالحة، بل ربي في كنف والبة وأمثاله من الفساق، فكان من شخصيته ما أرانا إياها أدبه وشعره وأخباره.

**شخصيته:** جميل الصورة، خفيف الروح، فصيح اللسان، هازل، سكير، مستخف في الدين.

**لغته:** قال الجاحظ: ما رأيت أحدًا أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه.

**أثره في الأدب:** أحسن بالخروج على خطة الشعر الجاهلي، وترك البكاء على الأطلال، وجعل الشعر شعرًا مصدره الشعور، وأساء إلى الأدب العربي بنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر، وتلك جناية ووصمة لا تغتفران له.

**امتيازه:** تفوق بوصف الخمرة والمجون والغزل والمداعبة؛ غرامية أو غير غرامية.

**الخمرة:** وصفها كثيرون في كل العصور، ففي الجاهلية وصفها وأجاد عدي بن زيد العبادي، وكانت أبياته تغنى للوليد بن يزيد، وأجاد وصفها الأعشى والأخطل، أما أبو نواس فلم يصفها وصفًا فقط سبَقَ فيه مَن تقدَّمه، بل قدسها تقديسًا:

**اثن على الخمر بآلائها وسمها أحسن أسمائها**

**شعوبيته:** عد النقاد له ما سنرويه لك، خروجًا على الأسلوب القديم، ثم عادوا فعدوه «شعوبية». أما الحقيقة فهي أن أبا نواس مستهزئ بكل شيء، فاسمع ما يقول:

| | |
|---|---|
| **عاج الشقي علـــــــــى رسم يسائله** | **وعجت أسأل عـــن خمَّارة البلد** |
| **يبكي علـــــى طلل الماضين من أسد** | **لا درَّ درك قل لـي من بنو أسد** |
| **ومن تميم ومـــــــــن قيس ولفهما** | **ليس الأعاريب عند الله من أحد** |
| **لا جفَّ دمع الذي يبكي علـــــى حجر** | **ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد** |

**تهتكه:** كان خليعًا متهتكًا لا يبالي بحدود الأدب والدين ولا يراعي شيئًا من هذا، قال في الخمر:

| | |
|---|---|
| **ألا فاسقني خمرًا وقل لي هـــي الخمر** | **ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجـــهر** |
| **فعيش الفتى في سكرة إثر سكـــــــرة** | **فإن طال هذا عنده قصر الدهـــر** |
| **فبُحْ باسم من أهوى ودعني من الكنى** | **فلا خير في اللذات من دونها ستر** |
| **ولا خير في فتك بدون مـــــــــجانة** | **ولا في مـــــجون ليس يتبعه كفر** |

وقال أيضًا:

**لا تبكِ ليلى ولا تطرب إلـــــى هندِ واشرَب على الورد من حمراء كالورد**
**كأسا إذا انحدرتْ في حلق شاربها أجدتْهُ حُمرتَها في العين والخـــــــدّ**

**فالـخمرُ ياقوتة والكـــــأس لؤلؤة   من كف جارية ممشوقة القـــــــدِ**

أيضًا:

**اشرَب- فُديتَ -علانيةْأمُّ التسترّ زانيـــــه**

**اشرب فديتكَ   واسقني   حتّى أنامَ مكانيــه**

**لا تقنعنَّ  بسكـــــرة   حتّى تعودَ بثانيـه**

أيضًا:

**فتمشّتْ في مفاصلــــــهم   كتَمَشّي البُرءِ في   السّقَمِ**

**فَعَلَتْ في البيتِ  إذ مُـزِجتْ   مثل فِعل الصبح في الظُلَم**

**فاهتدى ساري الظّلام بــه   كاهتداء السَفْرِ بالعـــلم**

**من مجونه:** لم يبرع أبو نواس هذه البراعة إلا لأنه صادف أرضًا خصبة وندماء لا ينفكون عن معاقرة الخمرة. ففي ذات ليلة قالوا: أين نجلس الليلة؟ فقال أبو نواس: فلتكن الدعوة شعرًا، والمجيد منا تقبل دعوته. فنظموا في ذلك وكانوا ستة، فأجادوا جميعًا، فكانت الجلسة في القهوة، ومن مجون أبي نواس، كما روى ابن منظور، قال: كان أبو نواس مع المصلين في المسجد فإذا بالإمام يقول: قل يا أيها الكافرون...فصاح أبو نواس من وراء: لبيك، فأخرج.

**رجاؤه:** كان رجاؤه بعفو الله عظيمًا كما يقولون، ولذلك أكثر من المعاصي معتمدًا على عفو الله، حتى ختم همزيته المشهورة بهذين البيتين وهما موجهان «للنظام» زعيم المعتزلة الذي كان يقول لا يغفر الله لأصحاب الكبائر:

**قولوا لمن يدعي بالعلم فلسفة عرفت شيئًا وغابت عنك أشياء**

**لا تحظر العفو إن كنت امرءًا حرجًا فإن حظركـــه بالدين إزراء**

**مدحه:** كان عربيًّا خالصًا إذا مدح أو رثى، وقد مدح محمد الأمين وكان نديمه، ومدح البرامكة.

**هجوه:** وقد هجا بظرف فقال:

**خبز المفضل مكتوب عليه ألا لا بارك الله في ضيف إذا شبعا**

**مع الجارية جنان:** أحب هذه الأنثى حبًّا صادقًا، وقال فيها شعرًا كثيرًا، ويروون أنه ذهب فحج عندما حجت جنان.

وفي ذلك يقول:

**حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعني وإياها المسير**

**زهده:** ويقال إنه زهد في آخر عمره، ومما قاله في الزهد:

**من اتقى الله فذاك الذي سيق إليه المتجر الرابح**

**شمِّر فما في الدين أغلوطة ورح لما أنت له رائح**

**ما قيل فيه:** قال أبو تمام: أبو نواس ومسلم بن الوليد، اللات والعزى وأنا أعبدهما.

قال النظام: كأنما جمع الكلام له فاختار أحسنه.

قال إبراهيم بن العباس: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس، علمت أن ذلك عنوان أدبه.

قال العتبي: عندي أشعر الناس أبو نواس، وعند الناس امرؤ القيس.

قال ابن السكيت: ارِ من المحدثين لأبي نواس فحسبك.

**خلاصة:** متقن اللغة قولًا وعملًا، عربي خالص إذا جد، ظريف إذا هزل، أخذ عن العرب قوافيهم ولفظهم المتين الجزل، أخذ عن الفرس أوصافهم المادية للحياة المتحضرة، أخذ عن اليونان معانيهم الدقيقة واصطلاحاتهم الفلسفية، أشد شعراء عصره ثورة على القديم، يفضل الحضارة على البداوة.

### (٥) أبو العتاهية:

**حياته:** أبو إسحاق اسماعيل بن كيسان، ولقبه أبو العتاهية. ولد بالأنبار وكان يبيع الجرار بالكوفة، كان في أول شبابه عشيرًا للخالعين مستهترًا، ثم ظهرت مقدرته الشعرية، فقال الشعر، وطرق أبواب الخلفاء، ونال جوائز المهدي، وأحب جارية للخليفة اسمها عُتبة، فخاب في حبه وتنسك، وصار يقول الشعر في الزهد ويحث على ترك الدنيا وملاذها، ولكنه ظل محبًّا للمال، وعلى زهده بقي يمدح الخليفة ورجال دولته. ثم امتنع عن الشعر، فحبسه الرشيد لأنه لم يلبِّ طلبه، وما أطلقه حتى قال الشعر الذي طلبه منه، وأدرك المأمون وكان من شعرائه وبطانته ينال جوائزه.

**آثاره:** ديوانه وليس فيه كل شعره.

**أغراض شعره:** غزل ومدح ورثاء وهجاء وعتاب واستعطاف، ثم ترك هذه كلها ووقف شعره على الزهد والوعظ والحكمة والمثل.

**زهده:** روي أنه كان يلبس المِسْح ويقضي الليالي ساهرًا مصليًا، ثم يدع المسح ويعود سيرته الأولى لاهيًا، أما مذهبه في زهدياته فمواعظ أدبية ونظرات في الحياة والموت: الدنيا زائلة فلنحتقرها، ولنقنع بما يُقيتنا، وزهدياته تخاطب العقل لا العاطفة والقلب، وزهديات أبي نواس صادرة من قلب محترق طافح بحب الحياة، أما زهديات أبي العتاهية فكثيرة التكلف، صادرة عن العقل، وقد اشتهرت بما فيها من حكمة جامعة.

**قريحته:** سيالة، وقد قال عن نفسه: لو أردت أن أتكلم شعرًا لتكلمت، ولكن هذه الدعوى ليست بذات بال فالشعر غير النظم، وهو لو قال نظمًا لكان أصدق.

**ساحة الملوك:** ولأجل كثرة الساقط في شعره، قال أحد النقاد القدماء: شعره ساحة الملوك، في كناستها التراب والذهب.

**فنه:** شعره سهل جدًّا، ولولا الوزن والقافية لكاد أن يكون نثرًا، وله في فنه سيرة بخلاف شعراء عصره الخلعاء، وهذا ما جعل له هذه الشهرة، ولكن لأبي العتاهية وثبات لا يستهان بها إلا أنها قليلة بالنسبة لشعره الكثير.

**(٦) أبو تمام**:

**نسبه:** حبيب بن أوس الطائي، نشأ بجاسم، وهي قرية من ناحية منبج من أعمال حوران. كان يخدم أباه الحيَّاك، ثم ذهب إلى مصر وصار يسقي الماء في جامع عمر، لم يعمَّر كثيرًا، وقد توفي بالموصل، وقبره فيها خارج باب الميدان على حافة الخندق.

**صفاته:** شاعر مطبوع، فطن ذكي، دقيق المعاني، سبق الشعراء إلى المطابقة، السليم من شعره لا يعلق به أحد، ورديئه رذل جدًّا.

**الرأي فيه:** مريدوه يفضلونه على كل سابق ولاحق، وكارهوه يحطون من قدره جدًّا، وينسبون إليه سرقة شعر غيره.

**معانيه:** كان يأخذ كثيرًا منها مما يسمعه، ومنها البيت المشهور:

**ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملًا إن السماء ترجَّى حين تحتجب**

أخذه من مخنث يعاتب صديقًا له، واتهمه دعبل أنه أخذ قصيدته التي مطلعها: «كذا فليجل الخطب» من مكنف أبي سلمى، قالها في رثاء زفافة العبسي.

**محفوظاته:** كثيرة جدًّا، يقال إنه كان ينشد أربعة آلاف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقطعات.

**كتاب الحماسة:** حبسته الثلوج في همذان عند رجوعه من عند الأمير عبد الله بن طاهر من خراسان، فنزل على أبي الوفاء بن سلامة الذي كان له خزانة كتب نادرة، فطالع فيها كثيرًا، وجمع كتابه «الحماسة» الذي قيل في أبي تمام بسببه: «إنه في انتقاء شعر الحماسة أشعر منه في شعره.»

**شعره:** يفضل تجويد المعنى على تسهيل العبارة. ولما رأى السلاسة تنقصه عمد إلى الجناس والمطابقة والاستعارة، فأثر ذلك في شعره وكان كتكلف ظاهر.

**ديوانه:** ديوانه جمعه أبو بكر الصولي مرتبًا على الحروف الهجائية، وجمعه علي بن حمزة الأصبهاني مرتبًا على الأنواع.

**ذاكرته:** غريبة جدًّا، قال البحتري: أنشدت سعيد بن أسلم الطائي قصيدتي: أأفاق صب في الهوى فأفيقا، وكان عنده رجل لا أعرفه، فلما انتهيت، قال لي ذلك الرجل: أما تستحي أن تنتحل شعري وتنشده بحضوري؟ وأنشد القصيدة برمتها، فتغير وجه سعيد وخرجت من عنده كاسف البال. وبينا أنا كذلك إذا برجل يدعوني ضاحكًا، فإذا هو أبو تمام وقال: «الشعر لك» وإنما هذه عادتي أحفظ القصيدة من مرة.

**بائيته المشهورة:**

قالها بالمناسبة الآتية: زحف توفيل بن ميخائيل ملك الروم على البلاد الإسلامية، حتى بلغ زبرطة، مولد المعتصم، وأغار على ملطية وغيرها، فقتل وسبى كثيرين، ومن جملة السبايا كانت امرأة هاشمية لطمها رومي على وجهها، فصاحت «وا معتصماه.» فلما بلغ المعتصم الخبر كانت بيده كأس فطرح الكأس وصاح لبيك لبيك! ثم جهز جيشًا عرمرمًا زحف به على بلاد الروم حتى بلغ عمورية، فحاصرها ورماها بالمنجنيق ودخلها وقتل نحو ٩٠ ألفًا منها، وهنا لا بد من هذه الحكاية، فنوردها ملخصة جدًّا؛ قالوا: عندما طال الحصار على عمورية، جمع المعتصم المنجِّمين، فقالوا: إنها لا تفتح إلا في زمن نضج التين والعنب. وظهر في ذلك العام نجم مذنَّب تقوَّل المنجمون فيه، وزعموا مزاعم كثيرة. أما عمورية ففتحت قبل الزمان الذي حدده المنجمون، فقال أبو تمام قصيدته الرائعة، وفيها ردَّ على المنجمين وغيرهم، وإليك منها ما يشير إلى الحوادث:

**السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجـــــــد واللعب**
**والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب**
**أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيـــها ومن كذب**

يبدع أبوتمام –عادةً– في وصف المرئيات، يشخِّص كل شيء، ومتى انتقدت عاطفته اختفى التكلف الذي يظهر في أكثر شعره. وقد اشتد الإعجاب به من أجل قصيدته الأولى: السيف أصدق... إلخ، التي سبق ذكر بعضها، والثانية في حرق الأفشين ومطلعها: الحق أبلج والسيوف عوار، ولعل أبا تمام هو أول الذين دخلوا موضوعهم رأسًا، بدون «مقبلات».

### (٧) دعبل الخزاعي:

**حياته:** أبو علي دعبل بن علي الخزاعي، ولد بالكوفة وأقام ببغداد، من متقدمي الشعراء ومجيديهم، إلا أنه كان هجَّاء خبيث اللسان لم يسلم من لسانه أحد، أحسن إليه أم أساء، ولم يفلت منه خليفة أو وزير أو نبيه شأن. فهو عندي الشاعر السياسي حقًّا وإن تقدمه ابن برد، قضى حياته كلها شريدًا هاربًا خائفًا. وقد قال عن نفسه: أنا أحمل خشبتي منذ خمسين عامًا، ولا أجد من يصلبني عليها.

**أخلاقه:** ناكر الجميل، ينسى العطايا، وهو قد هجا الرشيد على إحسانه إليه، وقد زاد على كل هذا اللصوصية، فكان يكمن للناس ليلًا، وقد رصد صيرفيًّا يهوديًّا طمعًا بما معه، فقتله، ولم يكن معه غير ثلاث رمانات في خرقة، فاشتد عليه الطلب فاختفى في الكوفة.

**قيمته:** مر الهجاء، جرت بينه وبين الشاعر أبي أسعد المخزومي مهاجاة شديدة، والفرق بينه وبين بشار، أن بشارًا كان أسفل لفظًا وأضيق نفسًا وأضعف تأثيرًا، إذ لم يكن لبشار حزب سياسي يحميه ويؤيده، أما دعبل، فكان يدافع عن العلويين ويحتمي عند أهل اليمن.

**لغته:** لغته بالإجمال أصح من لغة بشار، والكثيرين من معاصريه، حتى فضَّله البحتري على مسلم بن الوليد.

**أمثلة من هجائه:** قال يهجو الرشيد لما مات وقُبِر في الري، وهناك قبر الرضا من ولد علي بن أبي طالب:

**قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرِّهم، هذا من العبر**

في المعتصم:

**ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولـــم تأتنا عن ثامن لهم كتب**
**كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيار إذا عدوا، وثامنهم كلب**
**وإني لأُعلـــي كلبهم عنك رفعة لأنك ذو ذنب وليس له ذنـــــب**

**********

## ثانياً: النثر وكُتَّابه

تقدم النثر خطوات في آخر العصر الأموي على يد عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر بني أمية، كان الإنشاء في العصر الأموي آلة الخطابة التي كان لها الشأن العظيم في سياسة الدولة، فلما ضعف أمر الخطابة في العباسيين بانحلال الأحزاب وضعف الحياة السياسية، وتسلط العجم واعتماد الدولة على الإقناع بالسيف، أصبحت بضاعة الخطابة كاسدة لا يلجأ إليها إلا في الحفلات الكبرى، بيد أنه حل محل النثر الخطابي نثر آخر، وهو:

(١)نثر الدواوين الذي يصدر عن الخلفاء والوزراء.

(٢)نثر الترسل بين الناس، الذي حل محل الشعر فصار يعبر فيه عن جميع أغراض الشعر.

(٣)نثر التأليف، وقد شمل الموضوعات الأدبية والوعظ والإرشاد والعلم والسياسة وكل فن.

(٤)النثر الذي عُبِّر عنه «بالأدب الوصفي»، وبه تناولوا الشعر والنثر القديمين بالنقد.

### أولا: العلوم الأدبية:

وكما تنوع النثر تنوعت أساليب الكتاب فيه؛ فمنهم من كان يوجز، ومنهم من كان يطنب، ومنهم من كان وسطًا بين الإيجاز والأطناب، ومنهم من كان ينمق ويسجع، ومنهم من كان يرسله على السجية، وفي كل حال اصطبغت الرسائل بالصبغة المدنية الحضرية، فسهل الإنشاء ولان، فجاء منمقًا كالطراز الموشَّى.

**طاهر بن حسين:** وممن اشتهروا بالرسائل: طاهر بن حسين، له مجموعة رسائل ضاعت، إلا رسالة واحدة كتبها لابنه عندما ولاه المأمون

مصر، فيها وصايا بجميع ما يحتاج إليه دينًا وخلقًا وسياسة، وهي مدونة في مقدمة ابن خلدون، أما أشهر من عرف في هذا العصر من الكتاب فهو ابن المقفع.

**(١) ابن المقفع**:

ولد ابن المقفع سنة ١٠٦ ومات في الأربعين، ونشأ أبوه المقفع واسمه دازوبه، في ولاء آل الأهتم، وهم بيت فصاحة ولسن في الجاهلية، فنشأ المقفع وابنه مستعربين فصيحين، كان المقفع عاملًا للخراج زمن يوسف بن عمر والي العراق، فظهرت عليه خيانة في مال الدولة، فضربه الأمير ضربًا تقفعت منه يده، فسمي المقفع، أما ابنه روزبة «ابن المقفع» فنشأ في البصرة يتكسب ببضاعة أبيه، فخدم في دواوين العراق، آخر زمن بني أمية، وجمع بين ثقافتي العرب والعجم، وقد قرأ آداب الفرس والهنود، وكتب الحكمة التي ترجمها كسرى أنوشروان من اليونانية، فجعله كل هذا واحد زمانه، واتصل في العصر العباسي بوالي البصرة والأهواز وكتب لهما، وهما عمَّا أبي جعفر المنصور، وكان إذ ذاك لا يزال مجوسيًّا على دين زرادشت، فكتب وترجم لهما وللخليفة المنصور بعض كتب الأدب وكتب الفلسفة المنقولة عن اليونانية، ثم أسلم على أيديهما وسمي بعبد الله.

أما سبب موته فمختلف فيه؛ فمنهم من قال إن والي البصرة قتله لاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام، ومنهم من قال إن المنصور عبد الله بن علي خرج عليه فهزمته الجيوش فاستجار بأخوي المنصور سليمان وعيسى، فطلبه المنصور منهما، فأبيا تسليمه إلا بأمان خطي، فكلَّفهما المنصور أن يكتبا الأمان ليوقعه، فأمرا ابن المقفع، فاحتاط في كتابة الأمان كثيرًا حتى لا يجد فيه المنصور مخرجًا للإخلال بعهده، فأغضب ذلك المنصور، فأغرى به والي البصرة سفيان بن معاوية فقتله، وكان ابن المقفع كثير الاستهزاء بهذا

الوالي، ويقولون إن هذا الوالي كان ذا أنف طويل وإن ابن المقفع كان إذا دخل عليه قال: السلام عليكما، وهذه رواية لا تصدق.

**ثقافته:** كان ابن المقفع نتاج ثقافة فارسية عميقة واسعة لقِّحت بلقاح عربي، فكان من هذا وذاك أدب جم، فهو مدين في أكثر معانيه للفرس، وفي أساليبه وألفاظه للعربية. عاش في العصر العباسي عشر سنوات وشاهد كما شاهد غيره من الموالي اضطهاد العرب واحتقارهم لهم.

**شخصيته:** ابن المقفع قوي في خلقه وعقله وعلمه ولسانه. كان نبيلًا كريمًا، يحافظ على الصداقة جدًّا، ويوصي باختيار الأصدقاء، يدفع نفسه إلى المثل الأعلى، يرغب جدًّا في إصلاح الراعي والرعية، متمسك بآداب اللياقة، دقيق فيما يتطلبه الذوق، وكان أيضًا واسع الاطلاع، متضلع من اللسانين العربي والفارسي، نقل خير ما كتب باللغة الفهلوية، غزير المعاني إذا كتب، وليست كتابته جوفاء. يمعن في اختيار المعنى ثم يمعن في اختيار اللفظ.

**تآليفه:**

-**اليتيمة والأدَبان:** ترجمة وتأليف، جمع فيها المأثور عن ذوي العقول الراجحة من كل الأمم.

-اليتيمة: مفقودة، وغلطًا أطلقوا اسم اليتيمة على الأدب الكبير.

-**الأدب الصغير:** كلمات حكمية في الأخلاق أشبه بالمأثور من كلام علي، من أمثلته: أربعة أشياء لا يستقل منها القليل: النار والمرض والعدو والدَّين، وبسبب هذا العدد قالوا: أسلوبه رياضي. ولكنه غير مرتب، توضع فيه الفكرة حين تسنح أو ترد، أحيانًا تسند، مثل قوله قالت الحكماء وقال: وأحيانًا لا تسند.

-**الأدب الكبير:** كالأدب الصغير، كلمات ولكن مجموعها أطول، مرتبة غالبًا، أهم ما جاء فيه موضوعان: الكلام عن السلطان والولاة ومن يتصل بهما، أجاد الكتابة في هذا الموضوع؛ لأنه اتصل بالولاة فلاحظ ما

لاحظ، اتصل بالخلاف بين المنصور وأعمامه، وكان ركنًا من أركانه ومحررًا لوقائعه ومستشارًا في أمره وقارئًا لمثل هذه الأحداث في سير ملوك الفرس.

والموضوع الثاني منه: في الصديق والصداقة: وقد أجاد أيضًا في هذا الموضوع لتأثره به خلقيًّا كما سبق. فهو يرى في الأصدقاء عماد الحياة ومرآة النفس، ولا عجب أن احتاج إلى الصديق الوفي وهو منقطع لا رحم له. شهد دينًا جديدًا، ودولة تسقط ودولة تقوم، متصل بالخلفاء والولاة، نزَّاع إلى الإصلاح، لا يدري متى يفتكون به، لا يخفي النصيحة ولا يسكت عن ضعف، يصف العلاج بلا حذر، فمن كان في مثل هذا الموقف يحتاج إلى صديق يخلص له الإرشاد، فهذان الكتابان أثر من الثقافة الفارسية، فيهما حكم كثيرة ونظم عديدة، لا يخلوان من الثقافة اليونانية ولكنها ضعيفة الأثر فيهما.

-**رسالة الصحابة:** ويعني بالصحابة الولاة والخلفاء. يرجح أنه كتبها للمنصور، وهي كتقرير في نقد نظام الحكم إذ ذاك، ووجوه إصلاحه.

ذكر فيها أولًا غفلة الولاة وعجزهم عن القيام بالإصلاح، ووصف الحالة الاجتماعية بقوله: «وأمة إن أُخذت بالشدة حميت، وإن أُخذت باللين طغت»، ثم ابتدأ بشرح حال الجند الذين لم يكن لهم نظام يتقيدون به، ونصح أمير المؤمنين أن يحول بين الجند وبين إدارة الشئون المالية. وأشار بمراعاة الكفاءة بالقيادة وتعليم الجند الكتابة والتفقه بالدين، ودفع رواتبهم في حينها، ثم تقصِّي أحوال الجنود ومعرفة أخبارهم...إلخ، وتعرَّض لفوضى القضاء الذي لا يرجع لقانون معروف، إنما هو متروك لرأي القضاة واجتهادهم، وبذلك تتناقض الأحكام حتى في بلدة واحدة. وارتأى أن ترفع المسائل التي يقع فيها الخلاف إلى أمير المؤمنين. وفي الكتاب تعطيف المنصور على أهل الشام؛ لأن العباسيين نظروا إليهم كأعداء للدولة، وتكلم عن الحجاز واليمن واليمامة، وكانت موضع نقمة المنصور؛ إذ خرجت عليه، وسأله أن

يولي الصالحين من أهل بيته، وأن تسخو نفسه عن أموالها، إذا لم يمدها بمال من عنده، وختم هذا التقرير ببيان تأثير الخليفة إذا صح؛ لأن العامة لا تصلح إلا بصلاح الخاصة، والخاصة لا تصلح إلى بصلاح الإمام.

**-كليلة ودمنة:** أقدم كتاب خيالي أدبي في لغة العرب، هندي الأصل، عثر المستشرقون على أبواب كثيرة منه في كتب متفرقة. نقله الفرس إلى لغتهم وزادوا عليه باب بعثة برزويه، وباب ملك الجرذان (هذا ترجيح). ويرجحون أن ابن المقفع نفسه زاد عليه باب عرض الكتاب، وباب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والضيف، وباب البطة ومالك الحزين.

دفعَ ابنَ المقفع إلى ترجمة هذا الكتاب ميلُه إلى الإصلاح الاجتماعي، كما رأينا في الأدبين ورسالة الصحابة؛ ففي كتاب كليلة ودمنة يشرح بعض النواحي الاجتماعية شرحًا وافيًا؛ ينصح بعدم الإصغاء إلى الحاسد النمام، والحذر من العدو، والاعتماد على الصداقة، ويحث الضعفاء على الاتحاد ليتغلبوا على القوي البطاش، وينصح باستعمال الحيلة لبلوغ القصد.

وقد عاش ابن المقفع في زمنٍ لم تكن الحرية متوفرة فيه، وهو ميال للنقد، ولا يستطيع نقد الخليفة بصراحة؛ لأنه نضج في زمان أبي جعفر المنصور الشديد البأس والبطش، والسريع إلى إعمال السيف يقطع به رأس كل مخالف. قتل كثيرين بالظنة، وتذرَّع في قتلهم بالاتهام بالزندقة. وكان ابن المقفع نفسه أحد هذه الضحايا.

ولعل ابن المقفع رأى موقفه مع المنصور كموقف بيدبا مع دبشليم، فوصف دبشليم الملك بما يتصف به المنصور من العتوِّ والاستبداد بالرعية والاستهانة بها، وأن بيدبا الفيلسوف وعظه ورده إلى العدل والإنصاف، ولم يستطع ابن المقفع أن يصارح المنصور بأكثر ما صارحه في رسالة الصحابة خوفًا على رأسه منه، فعمد إلى ترجمة كتاب كليلة ودمنة، وأمثال هذه الكتب تظهر أيام الاستبداد، كما فعل لافونتين، ويظهر ما يرمي إليه ابن المقفع في

مقدمة الكتاب، إذ أخفى الغرض الرابع فقال عنه ما يأتي: «والغرض الرابع وهو الأقصى، وذلك مخصوص بالفيسلوف نفسه خاصة» ويظهر بالاستنتاج أن هذا الغرض هو النصح للخلفاء حتى لا يحيدوا عن طرق الصواب، وتفتيح عين الرعية حتى يعرفوا الحق ويطالبوا بتحقيقه، ولعل هذه النزعة كانت من أسباب الإيعاز بقتله.

لم يترجم ابن المقفع الكتاب ترجمة حرفية، بل عدَّله ليتفق والذوق العربي الإسلامي، وجعل فيه شيئًا جديدًا من روح الدين الجديد، كمجازاة الله بالخير خيرًا، وذكر جهنم، والإخلاص لله تعالى، وقد ظهرت زيادة ابن المقفع من الاطلاع على النسخة السريانية التي ترجمت سنة ٥٧٠م، ووجدت في أحد أديار ماردين ونشرت سنة ١٨٧٦م، وعلى توالي العصور، دخل على ترجمة ابن المقفع شيء كثير؛ لأن النسخ التي بين أيدينا تختلف عنها اختلافًا كثيرًا، وفي كتاب «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة» لابن الهبَّارية؛ اختلاف في ترتيب الأبواب، وليس فيه باب الحمامة ومالك الحزين، وسمي فيه إيلاذ وبلاذ وهيلار وبيلار.

**تأثير الكتاب:** لقد أثر هذا الكتاب في اللغة العربية جدًّا؛ فمنهم من نسج على منوال لغته وأسلوبه وعبارته، ومنهم من حذا حذوه، وكثيرون نظموه شعرًا. ولعل أسلوب ألف ليلة وليلة في تعليق القصص ببعضها قد أتى من هنا.

ناظموه: أبان اللاحقي، ابن الهبارية، وله منظوم ثالث أكمله عبد المؤمن بن الحسن الصاغاني.

مقلدوه: ابن الهبارية بكتاب «الصادح والباغم»، وابن ظفر بكتاب «سلوان المطاع في عدوان الطباع»، وابن عربشاه بكتاب «فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء»، وترجم كتاب «مرزبان نامه»، وإخوان الصفاء لهم في رسائلهم مناظرة بين الإنسان والحيوان من لون كليلة ودمنة، ويظن جولدزيهر أن اسم

إخوان الصفاء مقتبس من كتاب كليلة ودمنة؛ لأنه ورد في أول فصل «الحمامة المطوقة».

**فضل الكتاب:** إدخاله القصص المفصلة على الأدب العربي. للفرس والعرب فيه فضل المحسِّن، وللهند فيه فضل صاحب الفكرة وواضع الأساس.

**زندقته: قال الجاحظ:** ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم. وقال المهدي: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع.

**خلاصة:** إن مئونة ابن المقفع في كتبه من الثقافة الفارسية، وقلَّ فيها أثر الثقافة العربية الإسلامية؛ لأنه غير متأثر بدين؛ فحكمه مستمدة من تجارب دنيوية حتى ما يتصل منها بالدين، لا يعمد إلى السجع إلا ما جاء عفوًا، كلامه من السهل الممتنع، أديب مثقف، فارسي النزعة، مخلص لأصله، نشر آداب أمته وسياستها وتاريخها، نبيل سامٍ، وقد جاءه هذا النبل والسمو عن طريق الفلسفة والعلم لا الدين. يصدق؛ لأن الصدق شرف ورفعة، لا لأن الدين يأمر به، رجل مدني، لم يستند إلى آية أو حديث، أشبه بباسكال في أفكاره.

**أسلوبه:** جيد، وإن ظهرت فيه العجمة، رصين القول شريف المعاني، سهل بيِّن رشيق، يختار الكلمة السهلة الصحيحة الفصيحة، وربما فتش عنها، جمله خالية من أساليب التفنن في كتاب كليلة ودمنة، أما أسلوبه في الأدبين فمنطقي؛ ولذلك صعبت جملته، وقد أخذ شيئًا من أسلوب عبد الحميد، وقد اتبع أسلوب ابن المقفع كثيرون حتى ظهر الجاحظ.

## ثانياً: العلوم اللغوية:

علم اللغة: هو البحث في ألفاظ اللغة من حيث وضعها وأصولها واشتقاقها، وغايته وضع المعاجم، فلم يتم إلا في العصر العباسي الثالث،

غير أنهم انتبهوا إليه في أوائل الدولة الأموية فابتدءوا به، وكان من أشهر علمائه الخليل.

**الخليل**:

حليم وقور، طاف في البلاد العربية فوقف على ألفاظهم، أستاذه أبو عمرو بن العلاء، كان الخليل زاهدًا، مات في خراسان قبل أن ينهي كتاب العين، فأتمه تلميذه الليث.

-**كتاب العين:** انتقده كثيرون، منهم بن مريد، وبقي معروفًا حتى القرن الرابع عشر، فضاع ولم يصلنا منه إلا ما نقله سيبويه والسيوطي، غير أن مختصر الزبيدي له موجود منه نسخة في برلين واسكرباد، ومن كتبه: كتاب النغم، وآلات الطرب، وكتاب العروض.

**قيمته:** الخليل هو أول من ضبط اللغة ووزن الشعر، له فضل المستنبط؛ لأنه مهد لأصحاب المعاجم والنحاة. وقد كان واسع العلم، عنده من كل فن خبر.

**أبو الأسود**:

واضع الحركات بشكل النقط. أخذ طريقته عن الكلدان، وهو أول من ألف في النحو، على نهج السريان، وأول فصل وضعه «التعجب».

قيمته: إن لم يستوعب النحو كله فقد أسس علمًا كان شغل العلماء الشاغل، في العصر الأول والثاني العباسيين، فانقسموا إلى مذهبين: البصري والكوفي، وزادوا في المناقضات والتعليلات حتى صيروا كل خطأ صوابًا، وعلماء البصرة أصح حجة وأشد تعقلًا بإيراد البراهين، أما علماء الكوفة فمتعصبون لعصبية البدو، وقد فازوا على البصريين لأسباب سياسية.

**سيبويه**:

وهو من أصل فارسي، لزم الخليل وأخذ عنه، قصد بغداد وناظر الكسائي فيها، إلا أن الخلفاء نصروا الكوفيين عليه، فنفر منهم وعاد إلى بلاد الفرس ومات في قرية اسمها البيضاء.

**الكتاب:** هذا أثر سيبويه الخالد، قال فيه أبو عثمان المزني: من أراد أن يعمل كتابًا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحِ، ويقع الكتاب في ٨٢٠ فصلًا، في ألف صفحة، وطبع في باريس بمجلدين مع شروح ومقدمة بالإفرنسية بعناية المستشرق داريمبورغ، وطُبع في برلين ومصر، والجزء الأول يحتوي على الكلم وأقسامه والفاعل والمفعول...إلخ، والجزء الثاني يبتدئ بما ينصرف وما لا ينصرف والنسبة والإضافة...إلخ. وفيه باب الوقف وشروطه، والكلمات الفارسية الأصل.

**قيمته:** كان لكتابه أعظم أثر، وهو أساس مؤلفات النحو من ذلك الزمان حتى يومنا هذا. واشتهر من علماء البصرة اليزيدي والأخفش.

علماء الكوفة: الكسائي، أشهر نحاة الكوفة، ولد فيها وخرج إلى البصرة فأخذ عن الخليل، وقدم بغداد فأقامه الرشيد مؤدبًا لابنه المأمون. فارتفعت منزلته عند الخلفاء وتعصبوا له ضد سيبويه، وهو فارسي الأصل أيضًا. طاف البادية حتى قويت لغته.

**آثاره:** ألَّف في النحو والقراءة والأدب والنوادر، ولم يصل إلينا إلا رسالة في لحن العامة، كتبها إجابة لطلب الرشيد.

**قيمته:** بانتصاره على سيبويه علا قدر الكوفيين، ومن مشاهير علماء الكوفة: معاذ الهراء، الفراء، ابن السكِّيت.

**ابن السكِّيت**:

علَّم ابن المتوكل «المعتز» ثم قتله المعتز؛ لأنه كان متعصبًا للشيعة، وأرسل إلى أبيه ديته عشرة آلاف درهم قائلًا: «هذه دية ولدك رحمه الله.».

**قيمته:** قصير النظر في النحو.

**أشهر تآليفه:** إصلاح المنطق، تهذيب الألفاظ، شرح ديوان الخنساء، وديوان طرفة، وله شعر حكمي إلا أنه جافٌّ.

**المذهبان:** البصري والكوفي: البصرة والكوفة مدينتان أسستا على عهد عمر بن الخطاب، واختلط فيهما العرب والموالي ثم صارتا أهم مركز علمي، فاشتهرتا بعلم النحو واللغة، ثم تفوقت البصرة، ولا يزال مذهبها فائزًا يعوِّل عليه النحاة.

الكوفيون أكثر استعمالًا للقياس، والبصريون أكثر استعمالًا للسماع؛ أي كما يلفظ الأعراب «البدو».

**ثالثًا: العلوم الإسلامية:**

أولها الحديث والسنة، وهو ما ورد عن النبي وأقواله وأفعاله وغير مدون في القرآن.

**الحديث:** لمَّا كان القرآن كتابًا دينيًّا منزلًا لا يحسن شرحه إلا بمعنى واحد يتفق عليه الجميع، ولما كان من الصعب الاتفاق على هذا المعنى، أخذ المسلمون يتذكرون سلفًا عن خلف شرح النبي آيات الكتاب وما قاله في كل معنى من المعاني، فحفظ الصحابة ذلك وأخذه التابعون، ولم ينتبهوا إلى هذا العلم إلا في العصر الثالث، وقد هلك معظم الصحابة ومن تبعهم، وكثرت الأحاديث الكاذبة التي كان يصنفها ذوو الأغراض.

**أول مصنف:** أول من صنف في الحديث مالك بن أنس، اعتمد على الحديث المتسلسل، وعلى إخلاص المحدثين وأمانتهم، ولقد لعبت الشعوبية دورًا عظيمًا في تصنيف الأحاديث وإسنادها للنبي، وغاية هؤلاء إفساد الدين بما يدخلون عليه من بهتانهم.

**الفقه:** هو تطبيق أحكام الشريعة على أعمال البشر لتمييز الحلال من الحرام، ويعرف بعلم الدين أو الفروع. هذا العلم يقوم به العارفون بأمور الدين

والقرآن وشرحه وناسخه ومنسوخه كالصحابة والتابعين، وسمي علماء الدين في أول أمرهم «قرَّاء»، ثم لما انتشرت القراءة سُموا فقهاء، أما استنباط هذه الأحكام فعائد إلى إعمال العقل ودرس الكتاب، وهذا كان سبب اختلاف الشراح في الشرح، والتأويل — التأويل ضد المعنى الحرفي — والاستنتاج، ولهذا كانت غاية الجميع واحدة، وهي غرض الشارح في أحكامه، فكان من نتيجة هذا الخلاف أن قسِّم الشرح إلى قسمين: طريقة أهل الحجاز في الحديث، وطريقة أهل الرأي، وعن هاتين الطريقتين تفرقت المذاهب الأربعة:

(١)الحنفي: طريقته الدليل العقلي.

(٢)المالكي: طريقته الحديث.

(٣)الشافعي: مزيج من المذهبين.

(٤)الحنبلي: طريقته التثبت في الحديث وطرح كل قياس عقلي.

وهذه المذاهب الأربعة تكاد تكون واحدًا، وكل الدروب تؤدي إلى الطاحون.

**البدَع:** لم يكد يترجم العرب الفلاسفة الأعجام وتبدأ مدنيتهم بالازدهار، حتى أخذ علماء الدين يطبقون أحكام العقل على القرآن منتقدين ما جاء فيه مخالفًا للعقل، فنشأت البدع.

**البدعة:** هي كل مقالة مبتكرة جديدة في الدين مخالفة للأصول المرعية فيه، وهي كالبروتستانية في المسيحية.

ومن البِدع الإسلامية: المعتزلة، الخوارج، المرجئة.

**الفِرق:** كما تفرعت البروتستانية إلى فِرق مختلفة، كذلك تفرعت البدع في الإسلامية، فالشيعة المعتدلة مثلًا تكتفي بتكريم الإمام علي وذريته، أما الشيعة المغالية، وهي مجموعة فِرق، فتدعي الحلول في علي وسائر أمته.

**علم الكلام:** هو السلاح ضد البدع، وهو البرهان على العقائد الدينية بالأدلة العقلية، للرد على المبتدعة. موضوعه: معرفة عقائد الدين، وتطبيق حقائق الدين على أعمال البشر، واضعه: أبو موسى الأشعري.

## رابعاً: العلوم الدخيلة:

كالهندسة والموسيقى والفلسفة، وهي نتيجة أبحاث المسلمين من رجال العلم بالمدنيات القديمة التي وجدوها أول نهضتهم، فنقلوها إلى لغتهم، وحفظوا خلاصة علم اليونان والكلدان والسريان والهنود والأقباط، فدرسوها وأتموها وبنوا عليها مدنيتهم، وبهذا مهدوا السبيل للنهضة العربية في القرون الوسطى، ومما يجدر ذكره أن غزاة العرب كانوا أوفر تساهلًا من جميع غزاة الشعوب عن قصد أو عن غير قصد؛ لأن هؤلاء إذا احتاجوا إلى علوم مغلوبيهم طلبوا إليهم فكتبوا المؤلفات بلغتهم الخاصة دون لغة الغالب، أما العرب فكانوا يحضون المغلوبين على اتباع دينهم وشريعتهم ولغتهم.

**النقل:** ابتدأ مع المنصور، وخفَّ قليلًا على زمان المهدي، وهبَّ في زمن الرشيد، وبلغ شأوه في عهد المأمون، فنقل العرب:

عن اليونان: الفلسفة، الطب، الهندسة، الموسيقى، المنطق، علم النجوم.

عن الفرس: السِّيَر، الآداب، الحكم، التاريخ، الموسيقى، علم الفلك.

عن الهنود: الطب، العقاقير، الحساب، النجوم، الموسيقى، الأقاصيص.

عن المصريين: الكيمياء.

عن الكلدان: الزراعة، الفلاحة، التنجيم، السحر، الطلاسم.

ولم يأخذوا شيئًا عن آداب اليونان ولا عن تاريخهم.

## خامساً: تأثير النقل

**الألفاظ:** أجبر النقلة على إدخال الكثير من المفردات العلمية في تراجمهم، وأكثرها في الطب والفلسفة، فاضطروا إلى اشتقاق ألفاظ كثيرة من

العربية واستعمالها في غير معناها الوضعي الحقيقي؛ وخصوصًا في علم الفقه والبدع الإسلامية وصفات الأدوية ومفاعيلها، ولم يخلُ تركيب اللغة من هذا التأثر كما سبق فقلنا، وكان تعبير الكتب العلمية؛ وخصوصًا الفلسفية، لا يضاهي تعبير الكتب الأدبية متانة بسبب استعمال فعل الكون، يوجد، وكثرة الجمل الاعتراضية، واستعمال الفعل المجهول، وإدخال هو بين المبتدأ والخبر، وكان من التعبيرات الجديدة اللانهاية واللاأدرية واللاضرورة، الكيفية، الكمية، الماهية، الهوية، ثم بنقل الألفاظ الوضعية أو الاسمية: ماني، ماسية.

**الفلسفة:** تقسم الفلسفة العربية إلى شرقية، ومشاهيرها الكندي، الرازي، ابن سينا، وإلى غربية؛ أي أندلسية ومشاهيرها ابن باجه، ابن طفيل، ابن رشد، أما أصلها فواحد تقريبًا، يتفرع منها الأفلاطونية المستحدثة التي اشتهرت بأنها توفق بين أرسطو وأفلاطون، وقد زاد عليها العرب التوفيق بين العقائد الدينية والمبادئ الفلسفية — كما فعل المسيحيون قبلهم — والفضل في هذه النهضة للنقلة، وهم:

**(١)حنين بن إسحاق:** ترجم جمهورية أفلاطون، ومنطق أرسطو، وما وراء الطبيعة، وأخلاق أرسطو. هذا الرجل عهد إليه المأمون برئاسة بيت الحكمة، فعمل ما لا تستطيع أن تعمله المجامع. ولم يكتفِ بما أحضر له من الترجمة، بل كان يطوف بنفسه في البلاد ويحضر الكتب النفيسة ويترجمها.

**(٢)يوحنا بن البطريق:** ترجم سياسة أرسطو.

**(٣)يوحنا بن ماسويه:** عرَّب كتبًا عديدة. غير أن الفلاسفة المشهورين لم ينبغوا إلا في القرن الثاني.

التاريخ: إن العناية بانتقاء الحديث والرغبة في جمع الكتب وترجمتها؛ وخصوصًا الفارسية منها، دفعت العرب إلى هذا الفن.

**المغازي:**

لما اطلع العرب على ترجمة الكتب التاريخية الفارسية اندفعوا فألفوا في هذا العلم؛ علم التاريخ، فجمعوا حوادث دولتهم حادثًا فحادثًا، ومنها تألف تاريخهم.

-**ابن عقبة:** وأول المؤلفين في هذا موسى بن عقبة، وهو الملقب بإمام المغازي؛ لأنه دوَّن مغازي النبي؛ أي حروبه مع المشركين.

-**ابن إسحاق:** أبو عبد الله محمد بن إسحاق، كان له كثير من الأعداء فهرب إلى أقطار عديدة، ثم التقى أبا المنصور، فدعاه إلى بغداد وفيها مات.

**من آثاره:** سيرة الرسول، ضاعت إلا بعض أقسام منها استخرجها أحد المستشرقين الألمان.

**قيمته:** أول من كتب تاريخ الرسول، ولا يزال العلماء ينتقون مما جاء في هذه السيرة مما نقله ابن هشام من الحوادث أو النوادر، فيمحصونها ويدرسون تاريخها كي يتوصلوا إلى تأليف تاريخ عن النبي محمد، ومنهم من قضوا الحياة جادين وراء هذه الغاية.

**الموسيقى:**

طبيعي تقدم الغناء عند العرب؛ لأنه كان في الجاهلية يزدهر أوان الأسواق في عكاظ وغيرها، أما نظرية الموسيقى فلم يتوسع فيها العرب إلا بعد ازدهار الترجمة عن اليونان، فبحثوا في ذلك بحثًا مليًّا، وكان أكثر البارعين من العلماء والفلاسفة، وهم يذكرونها كاليونان بين الرياضيات، ويجعلون مقامها بعد الهندسة، وأشهر من ألَّف بذلك: الفارابي، والكندي، وابن سينا، وثابت بن قرة، وقد اشتهر الغناء مع الموسيقى الوترية، فكان للمغنين مراكز رفيعة في عين الخاصة والاعتبار عند الخلفاء، وقد جمع أخبارهم وحوادثهم وبعض طرق صناعاتهم، أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني، وأشهر المغنين: إبراهيم بن المهدي، وإبراهيم الموصلي، وابن إسحاق، وغيرهم.

**الطب:**

أول أطباء العرب الحارث بن كلدة الثقفي، معاصر النبي. أخذ الطب عن الفرس، وابنه النضر ابن خالة النبي، وقد شايع أخصامه فقتله الإمام علي، وبقي هذا العلم محصورًا ببعضِ وصَفاتٍ حتى ترجم العلماء العباسيون كتب أبقراط وجالينوس، فأصبح للطب مصدران أكثر العالم استعمالهما وأضافوا إليهما كثيرًا من معلوماتهم.

**أشهر الأطباء:** آل بختيشوع، نصارى نساطرة، نبغوا في الطب وخدموا الخلفاء العباسيين ٣٠٠ سنة.

جرجس بن بختيشوع: وبختيشوع بن جرجس طبيب الرشيد. أما أشهرهم فجبريل بن بختيشوع.

ومن مشهوري أطباء النصارى المقربين: يوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحاق، فحنين هذا ترجم كتبًا فلسفية وطبية، وكان تأثيره أقوى في مجرى الفلسفة.

**الكيمياء:**

منبع التفتيش عن حجر الفلاسفة «معنى ذلك، الحجر الذي يحول المعدن ذهبًا». أول من اهتم بهذا، الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموي، وأشهر علماء هذا العصر جابر بن حيان.

–جابر بن حيان: عاش في الكوفة صابئيًّا. أما الكتب المنسوبة إليه عند الغربيين في القرون الوسطى فأكثر من ٢٠٠ كتاب، المعروف منها ٢١ في مكاتب أوروبا، أكثرها قد تُرجم إلى اللاتينية والألمانية وطبع في مدن عديدة. نشر منها برتلو الكيماوي المشهور، خمسة كتب مع ترجمتها للإفرنسية.

آراؤه: الجمادات كالحيوانات، تولد ثم تنمو وتكبر وتموت. في الأجسام مواد خفيفة وثقيلة طيارة، الأولى مائية والثانية حية، وكل هذه الصفات نسبية.

فالكبريت والزرنيخ حيان بالنسبة للطَّلْق، ميِّتان بالنسبة للزئبق. وفي كل التحام كيماوي جسم وروح.

غاية الكيماوي أن يجد روحًا حيًّا، وإكسيرًا قادرًا على تحويل الأجسام، وهذا الإكسير هو حجر الفلاسفة، وهذا الحجر ينتج عن كائن حي، وهنا يختلف الكيماويون في حقيقته، فالبعض يقولون دم أو شعر أو بيض أو مفرزات. فإذا وجد هذا الحجر وسُحق وجُبل بالماء مع بعض العقاقير يتحول إلى إكسير.

**الأجسام الأولية سبعة:** الزئبق، الذهب، الفضة، النحاس، الحديد، الرصاص، الطلق، وهي تختلف كمالًا، فالذهب أكملها. فعلى الكيماوي أن يربي الباقية، ويقودها إلى الكمال شيئًا فشيئًا، وقد اختلف العرب في إمكان الوصول إلى هذه النتيجة، فالرازي يعتقد بصحتها، والكندي وابن سينا ينكران.

**قيمته:** الرأي الشائع أن كل المشتغلين في الكيمياء منذ القدم إلى اليوم يمخرقون ويشعوذون.

**الرياضيات:**

الحساب والجبر — أصل الأرقام. ينسب الغربيون أصل الأرقام للعرب، والعرب ينسبونه للهنود ويدعونها الأرقام الهندية.

(١)الخوارزمي: هو أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي، لا نعرف من حياته إلا أنه كان في بغداد على عهد المأمون.

**آثاره:** له في الحساب كتاب طلبه المأمون فاختصره عن كتاب الحساب الهندي المعروف بسند هند.

ألَّف كتابًا خاصًّا بالحساب تُرجم إلى اللاتينية، وله أيضًا كتاب في الجبر.

**قيمته:** للخوارزمي قيمة ثمينة؛ لأنه أخرج الجبر والهندسة من الغشاوة القديمة التي تغطي العلوم الهندسية القديمة، وألبسها الصراحة العربية، كما يقول المستشرق كرالوفا، ومما أتحف به الخوارزمي علم الرياضيات، بعض قواعد

وطرق اكتشفها وحسَّنها؛ منها قاعدة الخطأين، ومنها الطريقة الهندسية لحل المربعات المجهولة، وهي اليوم تسمى بالمعادلة من الدرجة الثانية.

**الهندسة:**

يونانية الأصل، أول من كتب فيها الحجاج الحسين من نقلة الرشيد، فترجم أصول إقليدس، ثم صلحها على عهد المأمون. طبعت هذه الترجمة في لندن. أما مهندسو العرب المشهورون فسيأتي ذكرهم.

**الفلك والنجامة:** ترجم كتاب بطليموس الحسين المذكور، وكان أول عالم في هذا الفن إبراهيم بن حبيب الفزاري، ألف جداول حساب العرب وصنع أسطرلابًا، وخلفه ابن محمد فدرس طريقة النجامة الهندية، ومن علماء هذا الفن يعقوب بن طارق، كان يعاصر هؤلاء، وهو مذكور بين المهندسين الذين خططوا بغداد.

**الفيزياء:**

استفاد العرب في أول عهد العباسيين أشياء من علم الحيل أثناء نقلهم عن اليونان. ولم يشتهر هذا العلم مع علمَي الهندسة والنجامة إلا عندما نبغ أبناء موسى وأبناء شاكر وقسطا بن لوقا والفيلسوف الكندي، وسيأتي الكلام عنهم.

## أما أشهر أدباء أو رواة هذا العصر فهم:

**أبو عبيدة:**

**حياته:** هو معمَّر بن المثنى، يهودي الأصل، ولد بالبصرة ونشأ على بغض العرب، وكان شعوبيًّا خارجيًّا، مرهوب الجانب، خبيث اللسان، ألثغ، يلحن عمدًا إذا قرأ أو تحدث، وإذا أنشد الشعر لم يقِمْ وزنه، ومن قوله: النحو شؤم كله، كان قذر الثياب، درس على أبي عمرو بن العلاء، ودرس أبا نواس، استقدمه الوزير ابن الفضل إلى بغداد، فكان يؤلف ويجيد، غير أنه جرح العرب أجمع بكتابه «المثالب»، فكثر أعداؤه، وسُمَّ بموز فمات، ولم

يسِرْ بجنازته أحد لكرههم له. وكان بينه وبين الأصمعي مساماة ومفاخرة.

**آثاره:** مؤلفاته بلغت المائتين في النحو واللغة وأخبار العرب وأيامها، لم يبقَ منها إلا القليل؛ ككتاب نقائض الفرزدق وجرير. طبع في لندن بثلاثة مجلدات سنة ١٩٠٥.

**قيمته:** عليم خبير بالأنساب والأخبار، يروي شعرًا كثيرًا، أجمع الكثيرون على أنه مخلص أمين فيما كان يذكره، ولا سيما فيما يتعلق بمفاخر العرب. له الفضل بفتح الطريق لكثير من جامعي أخبار العرب؛ كصاحب الأغاني الذي استفاد كثيرًا من كتابه أيام العرب، ركيك العبارة، بخلاف الأصمعي الذي قلَّ عنه علمًا، وكان يفوقه تعبيرًا، ولهذا قال أبو نواس: الأصمعي بلبل في قفص، وأبو عبيدة جلد قديم طُوي على عِلْم.

**الأصمعي:**

حياته: الأصمعي هو عبد الملك بن قريب الباهلي، ولد بالبصرة، ودرس على أبي عمرو بن العلاء، وتعلَّم نقد الشعر عن خَلَف. استدعاه هارون الرشيد وألحقه بمجلسه. كان شديد التدين حتى تجاوز الحد. رجع في شيخوخته للبصرة ومات فيها. اشتهر بقوة ذاكرته حتى قيل إنه حفظ ١٦٠٠٠ أرجوزة،

**آثاره:** ذكر ابن النديم أربعين كتابًا، نعرف منها الأصمعيات، مجموعة شعرية، ورجز العجَّاج، وهو كتاب له في اللغة، فيه أسماء الوحوش. وكتاب الإبل، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الخيل، وكتاب الشاء، وكتاب الدارات، وكتاب النبات والشجر.

**قيمته:** حاز شهرة بعيدة في حياته ومماته، فأصبح اسمه مرادفًا للفظة عالم وأديب ومطَّلع. ولهذه الشهرة سبب؛ وهو كثرة اشتغاله بدرس محالِّ العرب كما في كتاب الدارات، وأصل مفردات اللغة ومعانيها، وأسماء أعضاء الحيوانات

والنبات وغير ذلك. وقد انتصر على خصمه أبي عبيدة بحادثة الفَرَس المشهورة.

**محمد بن سلام:**

اسمه أبو عبد الله بن سلام الجمحي. كان عالمًا بالشعر والأخبار، ذكر له ابن النديم كتابًا في بيوتات العرب وآخر في مدح الأشعار.

**أشهر تآليفه:** طبقات الشعراء، طبع في لندن. بدأ فيه بنقد الشعر وطرق روايته وتاريخه والمنحول منه، ثم قسم الشعراء طبقتين: جاهليين وإسلاميين، وكل طائفة عشر طبقات، في كل طبقة أربعة شعراء، وألحق بشعراء الجاهليين طبقة لأصحاب المراثي، ثم ألحق بهم شعراء القرى وهي: المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين.

**قيمته:** مع محمد بن سلام يبدأ دور تمحيص الشعر. كان الأدباء قبله يروون الشعر عن غيرهم، أما هو فابتدأ بنقد الرواة، وأخذ يقابل بين الروايات ويفاضل بين الشعراء، وتبعه الأدباء بعده في ذلك. ولكتابه قيمة تُذكر وشأن كبير، ذكره الكثيرون واستشهدوا به، وكان أول من قسم الشعراء إلى طبقات.

غير أن انتقاده يكاد ينحصر بإيراد أحاديث وأحكام من تقدمه. ثم لا يخفى أن تقسيمه هذا ووضعه أربعة شعراء في كل طبقة لمما يؤيد الانتقاد.

**أبو زيد القرشي:**

حياته: محمد بن الخطاب، بصري، اشتهر بالنحو ودعاه سيبويه «بالثقة». صار من مشاهير الرواة في النوادر واللغة.

**آثاره:** جمهرة العرب: جمع فيه ٤٩ قصيدة، قسمها إلى سبع طبقات، كل طبقة ٧ قصائد. صدَّره بمقدمة انتقادية في الشعر واللغة، وأقوال الشعراء، واختلاف الناس في قيمته، والمفاضلة بينهم، وصفاتهم وبعض أخبارهم.

**قيمته:** كان لهذا الكتاب تأثير لما فيه من نقد الشعراء، والمقابلة بين لغته وبين لغة القرآن وأقوال الأدباء في الشعر والشعراء. غير أننا نرى فيه ما في

كتاب ابن سلام من عدم الشخصية؛ أي لا آراء خاصة، وقد نقل أحكام الأدباء دون أن يرتبها، ولم يردها إلى أحكام عامة ومبادئ نقدية ليستخلص منها حكمًا خاصًّا به، كما هو شأن نقاد اليوم.

وعلى كلٍّ، فهو قد خطا خطوة وإن قصيرة، ككل شيء في أول نشأته.

**********

# الفصل الثاني:
# العصر العباسي الثاني

## أولا: الشعر والشعراء

**العهد التركي:** يبدأ العصر التركي العباسي بخلافة المتوكل، وينتهي بدخول الديلم وتأليفهم الدولة البويهية.

**نفوذ الأتراك:**

امتاز هذا العصر بنفوذ الأتراك فيه وتسلطهم على الخلفاء. أدخلهم المعتصم؛ لأن أمه تركية، ليقاوم بهم نفوذ الفرس، وعززهم المتوكل لكرهه الشيعة والفرس، «أمر بهدم قبر علي بن الحسين كرهًا»، لقد بلغ من أمر الأتراك أن استبدوا بالخلفاء، فكانوا يقتلونهم وينصبون من شاءوا منهم؛ «فالمتوكل قتله غلام تركي» وعلى عهد ابن المعتصم والمعتز بن المتوكل استفحل أمرهم واستبدادهم، فلما تولى المعتز أحضروا المنجمين وقالوا لهم: انظروا كم يعيش الخليفة، فقال من كان بالمجلس: مهما أراد الأتراك، وهكذا كان، فإنهم قتلوا المعتز شر قتلة، وسملوا عيني المستكفي، وصار القاهر فقيرًا فحبسوه، فكان يلتف بقطن جبة، وفي رجله قبقاب خشب، وأخيرًا صار الخليفة آلة بيد الأتراك يحلف يمين الطاعة لهم.

**نفوذ الخدم:**

ثم جاء نفوذ الخدم في هذا العصر، ففيهم كان يحتمي الخلفاء من الأتراك. وقد كان للمقتدر من الخدم ١١ ألفًا، وفي هذا العصر انتشرت الرشوة والفساد، فأصبح كل حاكم يهمه أن يحتفظ لنفسه بما يستطيع الوصول إليه من المال، وكثر الاغتيال، فالخليفة يخاف على نفسه من جنده وحشمه، والحاكم يخاف على نفسه من الخليفة، والوزير يخاف على نفسه من الجميع.

وكان كل هؤلاء معرضين لتصفية الأموال وحجز الممتلكات، وقد تقيدت الأفكار بداعي الاستبداد والقتل.

**مميزات هذا العصر الأدبية:**

(١) أثَّر الفساد السياسي في الآداب، ولا سيما ما كان فيها نفسيًّا؛ كالشعر والإنشاء، وقُيدت الأفكار، وقلَّ النابغون. وكان للعلوم السبق على الآثار النفسية.

(٢) ظهر انقلاب في ألفاظ اللغة، فتوسعت معاني بعضها حتى خرجت عما وُضعت له في الأصل.

(٣) استقر الخط العربي على ما وصل إلينا. وكان أول من وضع هذه القاعدة ابن مقلة سنة ٢٨٣ مات في السجن بعد أن صودرت أمواله وقطعت يده ثم لسانه.

## مميزات الشعر

(١) توسع الشعراء في البديع والزخرفة، وكان قد ابتدأ بذلك بشار وأبو تمام، فأتمه في هذا العصر البحتري، وزاد عليه ابن المعتز.

(٢) كان شعراء العصر الأول قد ابتدءوا مع أبي نواس بوصف مجالس الأنس والزهريات، فتوسع نظَّامها في هذا العصر، ولطفت تشابيهها مع ابن المعتز.

(٣) أخذت العلوم الفلسفية تؤثر بالشعر، فظهر التلميح إليها في هذا العصر، على أنها لم تزدهر إلا في العصر الثالث أيام المتنبي ثم المعرِّي.

(٤) إن التضييق على الحرية، وعدم التبسط في الأغراض السياسية، وضعف شوكة الأحزاب المختلفة، أثرت في الآداب النفسية، فقلَّ عدد الشعراء ولم يشتهر منهم إلا أصحاب الشاعرية القوية.

(٥) كان من نتيجة ذلك أنهم بدءوا يتذمرون ويتشكون من ذهاب من يعرفون قدر الشعر، على حدِّ قول ابن الرومي:

**ذهب الذين تهزهم مُدَّاحهم  هزَّ الكلمة عوالي المران**

(٦) نبغت طبقة من الكتاب الذين انتقدوا الشعر وروايته، فكانوا في العصر السابق ينظرون فيه بلا تمحيص، فصاروا بهذا العصر يتدبرون معانيه وأساليبه بعين النقد، حتى أخذ هذا الفن يستقل عن بقية الفنون.

## أهم الشعراء:

### ١ - ابن الرومي

**أصله:** من اسمه تعرف أنه رومي الأصل غير عربي، وهو من السوقة، غالى الذين ترجموا له ودرسوه فنسبوا إلى أصله أشياء كثيرة رأوها في شعره.

**خاصياته:**

(١) طول قصائده، وهذا دليل على كثرة أفكاره.

(٢) هجوه مر بذيء أحيانًا، يخرجه بشكل صورة هزلية.

(٣) خلَّاق للمعاني النادرة، يأخذ الأفكار المبتذلة فيأتي بصور ووجوه جديدة لم يسبقه إليها شاعر.

(٤) تهافته على المعاني جعل شعره غير منقَّى.

(٥) مبتدع لا متبع.

(٦) أطول الشعراء نفَسًا.

(٧) مضطرب المزاج حاد الشعور.

(٨) قصيدته ليست ذات موضوعات متعددة كغيره من الشعراء.

**شراهته:** تظهر شراهته وحبه للطعام من نظمه في الطعام والشراب على مختلف أنواعه.

**تطيُّره:** كان كثير التطيُّر، يحبس نفسه أيامًا في بيته بلا طعام ولا شراب، إذا تشاءم.

**هجاؤه:** كان هجَّاء لا يخاف أحدًا. وقد قُتل بسبب هجائه كما حصل لغيره من شعراء عديدين، وقد أجاد العتاب والهجاء؛ لأنه تأثر بمعاملة أهل عصره له، وإعراضهم عنه، حتى كان يجوع ويعرى أحيانًا، وقد طلب الكسوة والرغيف، كما نقرأ في شعره.

**خموله:** من أسباب خموله تطويله القصائد إلى حدٍّ يُمَل، وقلة حيلته، وهجوه الأمراء، وبعده عن الناس لتطيره، وأسلوبه الذي لم يألفوه.

**عبقريته:** كان يختلف عن شعراء العرب بفكره وأدبه، ولعل لأصله الرومي يدًا في ذلك.

**نظره للطبيعة:** كان يعشقها كأنها من لحم ودم، وهذا ظاهر في شعره. ينظر إليها نظرة طبيعية كأنها أنثى حقًّا، وهذا بعض ما قاله فيها:

**فهي في زينة البغي ولكن هي في عفة الحصان الرزان**

وقوله:

**تبرَّجت بعد حياء وخفر تبرج الأنثى تصدَّت للذكر**

**الألوان:** كان محبًّا للألوان، يكثر من ذكرها.

**حظه:** ولد في خلافة المعتصم، وأدرك الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد، فلم يؤاسه أحد منهم ولا وهبوه شيئًا، فكان فقيرًا. يسمعون قوله في وصف مأكولاتهم ولا يجودون عليه بفضلاتهم، بل كانت توصد الأبواب دونه.

**خصاصته:** يدل عليها طلبه الثياب ليتقي البرد، ومنها قوله لأبي جعفر النوبختي:

**جعلت فداك لم أسألْ كَ ذاك الثوب للكفن**

**سألتكه لألبسه وروحـــــي بعدُ في البدن**

**شخصيته:** ساخط على الحياة، ناقم على العصر وأبنائه، نفسه متألمة جدًّا من فقره.

**سخريته:** قد كان على حظٍّ كبير من السخر والاستخفاف، قال:

**أطلِقْ الجرذان في الليل وصِحْ هل من مبارز**

وقوله في بخيل:

**فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد**

**أسباب هجائه:**

(١) سبُّ الناس شعره وانتقادهم له.

(٢) قيام الكتَّاب والحجَّاب في سبيل رزقه ومنعهم إياه من الوصول إلى من يرجو عطاءه.

(٣) رد الناس مدحه وحرمانه العطاء.

**عتابه:** كان يحاول أولًا الاستمالة باللطف، ثم بالتذلل، ثم تذكيرهم بواجب الصداقة، والمحافظة عليها لأنها نادرة الوجود، كقوله:

**ثم يخفى عليك أني صديق ربما عز مثله في الغلاء**

**خلاصة:** أطول الشعراء نفسًا، طبعه حاد، كثير الإنتاج، حاد الشعور حتى الهوج، مشوش المزاج إلى حد التطير، شعره سلس، سهل الألفاظ حتى الركاكة، بارع في عتابه، لسانه مر في هجائه، هجَّاء في معرض الرثاء، قصيدته ذات موضوع واحد، لا تنقُّل فيها، ادعى أنه عباسي كما مر بك، وفي إحدى قصائده برهن على أنه متشيع ومتعصب لهم، ولو حظي بمن ينقِّي له شعره، لكان له أروع ديوان.

## ٢- البحتري:

هو أبو عبادة، الوليد بن عبيد، والبحتري لقب عرف به الشاعر نسبة إلى أحد أجداده، "بحتر"، وقد لد بمنبج قرب حلب بسوريا عام ٢٠٤هـ، واتصل بأبي تمام، فتأثر به، واكتسب منه فصاحة اللسان وجمال الأسلوب،

وذهب إلى بغداد، واتصل بالخلفاء والوزراء ومدحهم، خاصة الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، وقد توفي عام ٢٨٤هـ، وقد برع البحتري في الوصف والغزل، ويروى أن البحتري زار إيوان كسرى، وهو قصر الأكاسرة بالمدائن جنوب بغداد إثر مقتل الخليفة المتوكل، فأعجب به أشد الإعجاب، واستلهم من بنائه الضخم، ومن الرسوم الرائعة على جدرانه سينيته هذه، والتي اشتكى فيها من ضيقه وهمومه وتصبر بآثار كسرى والفرس.

يقول:

**صُنْتُ نَفسي عَمَّا يُدَنِسُ نَفْسي     وتَرَفَّعْتُ عن جَدا كل جِبْـــــسِ**

**وتماسَكتُ حينَ زَعزَعني الدَّهـ     ـرُ التماساً منه لتَعْسِي ونَكْسي**

**حَضَرَتْ رَحْلِيَ الهُمومُ فـــوجَّـ     ـهتُ إلى أبيضِ المدائنِ عَنْسي**

**ذَكَّرتْنيهُمُ الخُـــطوبُ التّوالـــي     ولقد تُذْكِرُ الخـــــطوبُ وتُنْسي**

**لـــــو تراهُ عَلِمْتَ أنّ اللّيالي     جَعَلَتْ فيهِ مأتماً بعــــدَ عُرْسِ**

**فإذا مـــا رأيتَ صورةَ أنطاكِيّـ     ـــــــةَ ارتَعْتَ بينَ رومٍ وفُرْسِ**

**والمنايا مـــــواثِلٌ وأنوشِرْوانَ     يُزجي الصّفوفَ تحـت الدِّرَفْسِ**

**وعِراكُ الرِّجالِ بينَ يَدَيْهِ فـــي     خُفوتٍ مِنْهُم وإغماضِ جَـــرسِ**

**تَصِفُ العينُ أَنَّهم جِدُّ أحـــياءٍ     لَـــــــــهُم بَيْنَهُمُ إشارةُ خُرْسِ**

**يَغْتَلي فيهمُ ارتيابيَ حتّـــــى     تَتَقَرَّاهُمُ يَداي بِلَمْـــــــــــسِ**

وصنت: حفظت، يدنس: يوسخ، جدا ( جدو): العطاء، جبس: اللئيم الجبان، زعزعني: حركني بشدة، نكسي: إذلالي، (رحلي : الرَّحْلُ: كل شيء يعد للرحيل من وعاء للمتاع وغيره، الهموم: الأحزان أبيض المدائن: المراد عاصمة الفرس، وهي تتألف من مدائن عدة، عنسي: ناقتي، الخطوب: مفردها الخَطْبُ، وهو الحال والشأن والأمر الشديد، التوالي: المتتابعة، مأتما: ( أَتَمَ ): الجماعة من الناس في حزن، جمع مَآتِم، وعرس: الزفاف والتزويج، جمع أعراس، وأنطاكية: أنطاكية مدينة عريقة وكبيرة تقع في جنوب تركيا،

ارتعت: فزعت، المنايا: مفردها المنيّة وهي الموت، مواتِلٌ: ماثلة وشاخصة وقائمة، أنو شِروان: من أشهر ملوك الفرس، يزجي: يرسل ويوجه، الدّرفس: العلم أو الراية، عراك: قتال، خفوت: هدوء وسكون، وإغماض: خفاء، جرس: الخفي من الصوت، جِدّ: لم يهزل، خرس: مفردها أخرس وهو من انعقد لسانه عن الكلام، يغتلي (غلو): يتعاظم، ارتيابي، الريب: الشك، تتقرّاهم: تتّبعه لتتحقق منه...

**الشرح**:

يفتخر الشاعر بنفسه، حيث إنه حفظ نفسه من كل ما يسيء إليه ويلوث سمعته، فقد ترفع عن طلب العطاء من الجبان اللئيم، وقد أراد الدهر أن يذله ويقهره، لكننه تماسك أمام عوادي الدهر وقابلها بخلق قوي وعزم راسخ، ويبين الشاعر سبب رحيله، حيث كثرت الهموم عليه وكثرت أحزانه لمقتل الخليفة المتوكل ووزيره، مما جعله في ضيق من العيش؛ فدفعه ذلك إلى توجيه ناقته للمدينة البيضاء ليسرِّي عن نفسه بعض ما فيها من الأحزان، وإن أحداث الدهر والمعاناة التي يعانيها الشاعر في معيشته ومقتل المتوكل ووزيره دفعته لتذكر مصير هؤلاء القوم، فلا عجب فإن المصائب منها ما يذكرك ومنها ما ينسيك، ثم يصف الشاعر إيوان كسرى الذي مَن يراه يوقن بأن الأيام والليالي قد جعلت الحزن سمة له، بعد أن كانت لا تفارقه الأفراح، وقد امتلأ القصر باللوحات الجدارية الجميلة التي تصور حروب ومعارك الفرس مع الروم.

وقد شد انتباه الشاعر مشهدا على جدار القصر يمثل معركة دائرة بين الروم والفرس ويصفها وصفا دقيقا، وقد شُخِص فيها الموت وعنف اللقاء، ويظهر فيها أنوشروان وهو يوجه جنوده ويدفعهم تحت رايته، وتدور رحى المعركة بين المقاتلين في سكون وهدوء وصوت خفي، يكاد الشاعر يسمع صوت جرسا خافتا مبهما لا وضوح فيه من شدة إتقان الصورة،

فالعين بكل ما تراه من حركة تكاد تقر أنهم أحياء ولكنهم يستعملون بينهم لغة الإشارة، وتعاظم شكي في هذه اللوحة حتى ظننت أنهم أحياء بالفعل، مما دفعني إلى لمسهم بيدي؛ حتى أتأكد من كونها صورة لا حقيقة.

**٣- ابن المعتز**:

**اسمه:** عبد الله بن المعتز بن المتوكل.

**لقبه:** المرتضي بالله.

**خلافته:** كانت يومًا وليلة، ولذلك لم يعدَّ من الخلفاء.

أوصى المكتفي بالله لابن أخيه جعفر بن المعتضد، ولقَّبه المقتدر بالله، وكان عمره ١٣ سنة، فساد الخدم والنساء واستولوا على الأمور، فصعب ذلك على القضاة والقواد فأوصوا الوزير العباس بن حسن في خلعه ومبايعة ابن المعتز، فقتلوا الوزير وخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦، وقد بايعوه بالخلافة مرغمًا، وطلبوا من المقتدر أن يخلي دار الخلافة لينتقل إليها ابن المعتز، فأطاع واستمهلهم للغد، وفي تلك الليلة فرَّ إلى الموصل ولم يبقَ في الدار إلا خادمه مؤنس، وخازنه موسى، فبلغ ذلك ابن المعتز، فسار ومعه وزيره محمد بن داود وظن أن الجند يتبعه فخذل، واختفى مع وزيره خوفًا من الغوغاء التي انتشرت في بغداد ثلاثة أيام.

**مقتله:** فلما رأى المقتدر ضعف خصمه، عاد إلى بغداد في العسكر وقبض على خصومه فقتلهم، أما ابن المعتز فاختفى عند ابن الجصاص، فعرف مكمنه وقبض عليه، وقُتل خنقًا، ولُفَّ في كيس وسُلِّم لأهله هكذا.

**صفاته:** حسن الأخلاق، واسع الاطلاع على زبدة العلوم وفنون الأدب، كثير المطالعة، مولع بالشطرنج، حسن المذاكرة، شريف الهيئة، يحب الطِّيب والتضمخ به، جذل طروب، جواد على أهل الأدب بماله، كان لا يخرج من عنده أديب أو نديم إلا بصلة وطِيب، وكان يشرب معتمدًا على عفو الله:

**وأشربها وأزعمها حرام وأرجو عفو ربٍّ ذي امتنان**

**البديع:** مغرم به لدرجة قصوى، وخصوصًا في الاستعارة والتشبيه، وهو أول من ألَّف في البديع، جمع منه ١٧ بابًا ثم عقبه قدامة فزاد ١٣ بابًا، وجاء بعدهم كثيرون فزادوا عليه حتى بلغ ما بلغ.

**٤- النميري**:

**وصفه:** كان مولعًا في الوصف إلى حد بعيد يتقنه جدًّا، وأكثر شعره قوامه الوصف الدقيق في أشياء كثيرة، وخصوصًا مجالس الأنس وما إليها.

**حياته:** ملاهٍ وأنس – حياة ملوك – شعره مرآة حياته.

**خلاصة:** رجل عربي قحٌّ، ترفَّع عن بذيء اللفظ ومبتذل المعنى. جميل الأفكار، مختار اللفظ، دقيق التعبير، شعره خالٍ من الزلفى، يحب الفن للفن، ألهى عقله بالشعر كما التهى بالصيد والشراب والزينة. هو في العباسيين كالوليد في الأمويين، والفرق بينهما أن ابن المعتز شاعر الصنعة، والوليد شاعر السليقة، وكل منهما أجاد في ناحيته.

**ميزة شعره:** رقة وانسجام، وسهولة لفظ وتعبير، وهذا ناتج عن أخلاقه وتربيته، لم يمدح إلا نادرًا وعن اقتناع بوجوب المدح. معظم شعره في وصف الجنائن ومجالس الخلَّان، وأندية الطرب وجمال الطبيعة، والصيد والكلاب، والبواشق والبئزان.

أبرع شعراء العرب استعارة وتشبيهًا ووصفًا، فإذا صح قولهم: كلام الملوك ملوك الكلام، فذلك ينطبق على ابن المعتز في زمانه.

**الخلاصة:** إن في شعره رقة الملوك، وغزل الظرفاء، وهلهلة المحدثين.

**خلاصة عامة**:

شعراء هذا العصر يمتازون عن الذين تقدموهم بأنهم جمعوا بين الغزل والعلم، فكانوا شعراء ومؤلفين، إلا ابن الرومي فإنه كان شاعرًا فقط.

**********

## ثانياً: النثر وكُتَّابه:

### (٤-٢) النثر

**الإنشاء:** إمام الإنشاء في العصر العباسي الأول ابن المقفع، أطال الجملة وصرفها عن إيجاز الراشدين إلى تنميق عبد الحميد، واشتهر أسلوبه في إنشاء كليلة ودمنة، وهو أسلوب الكتاب؛ أي الإنشاء المرسل، بلا تسجيع ولا تقطيع، فتبعه الكثيرون. حتى ظهر الجاحظ في هذا العصر، فقصر الأسلوب القديم وجعل الجملة قطعًا صغيرة، وأدخل في الدعاء الجمل الاعتراضية، فتبعه كثيرون حتى أطالوها فأضحت غامضة، وكانت الأفكار في صدر الإسلام وما قبله، جامعة مختصرة عامة غير مفصلة، فجاء التعبير موجزًا بليغًا، فلمَّا توسع الفكر وفصِّلت معانيه طال الإنشاء واتسع، فابتدأ هذا الأسلوب بعبد الحميد، ثم جاء ابن المقفع فخلا نثره من التسجيع والتقطيع؛ لاتصال المعاني بالأفكار وخروجها من بعضها البعض، فكان الإنشاء المرسل، ثم جاء الجاحظ، وأدخل أسلوبه المعروف؛ أي عبارات قصيرة كالشعر ولكن دون قافية ووزن، وكان هذا الإنشاء عنوان التفكير المفصَّل غاية التفصيل، والرجوع إلى الذات.

**العلوم اللغوية:**

عرفنا فيما تقدَّم كيف نشأ علم اللغة وتوسَّع، وذكرنا من مشاهيره الخليل. أما في هذا العصر، فاتسع هذا العلم توسعًا كبيرًا، وظهرت الكتب المطولة التي مهدت السبيل للمعاجم اللغوية التي نضجت في العصر الثالث، وكان من أشهر اللغويين في هذا العصر: المبرِّد.

**المبرِّد:** أشهر تآليفه: «الكامل»، وهو كتاب أمالي ولغة ونحو. المبرد يمثل الثقافة العربية في العصور العباسية؛ لأنه لم يعتمد على أدب أجنبي،

وهو شديد النزعة إلى العروبة، وخصوصًا أبناء قومه الذين أشاد بذكرهم في كتابه هذا، وروى ما له علاقة بأمجادهم.

**ابن دريد:** صاحب المقصورة الدريدية. وله كتاب جمهرة العرب، وهو معجم مرتب على حروف الهجاء، وكتاب الاشتقاق، وهو قاموس في أسماء القبائل العربية.

**عبد الرحمن الهمذاني:** من تآليفه: الألفاظ الكتابية، وهو كتاب فيه مترادفات، ألفاظ وجمل يستعملها الكتَّاب.

## علم النحو:

فساد مَلَكة اللسان أدى إلى وضع القواعد، وكان أسبق الناس إلى ذلك الخليل. وسبب فساد اللغة الامتزاج بالأعاجم ومخالطتهم بالسكنى والزواج، وقد رأيت فيما مضى مذهبَيِ البصريين والكوفيين وغلوهما. أما في هذا العصر فنشأ مذهب بين بين، وهو مذهب البغداديين، أشهر أركانه المازني، وهو أول من دوَّن علم الصرف منفردًا عن النحو.

**ثعلب أبو العباس:** ألَّف كتاب الفصيح المعروف باسمه «فصيح ثعلب»، وله أيضًا قواعد الشعر وشرح ديوان زعير، وديوان الأعشى، وكتاب الأمالي المعروف باسم: «مجالس ثعلب».

فهؤلاء الكتَّاب لم ينصرفوا إلى اللغة وحدها، بل كتبوا في الأدب كما رأيت.

## (٤-٣) العلوم الدخيلة:

النقل: رأينا في العصر العباسي الأول أن جلَّ همِّ الخلفاء كان لنقل الكتب العلمية إلى العربية، وظل هذا العمل موضوع الاهتمام في أوائل العصر الثاني، فكان خير تمهيد للتآليف العلمية. أما نَقَلة هذا العصر فمنهم:

**إسحاق بن حنين:** كان طبيبًا أيضًا، أكثر منقولاته في الفلسفة عن أرسطو، ونقل كتاب إقليدس.

**قسطا بن لوقا:** نصراني بعلبكي، أتقن اليونانية والعربية والسريانية، واتصفت ترجماته بإقامة العبارة ورشاقة التعبير.

**متى أبو بشر:** ابن يونس، ترجم كتاب أرسطو في الشعر.

**يحيى أبو زكريا:** ابن عدي، نصراني من اليعاقبة.

## العلوم الطبيعية:

أشهر فروع علم الطبيعة التي اشتغل فيها العرب في هذا العصر هي: الطب، الكيمياء، الطبيعيات.

**الطب:** اشتهر به **أبو بكر الرازي**، جالينوس العرب، ويسميه الإفرنج Rases.

**آثاره: كتاب الحاوي:** ملخص الطب، كتاب الجامع، برء الساعة.

**الطب المنصوري:** يحتوي على عشرة كتب منها: الجدري والحصبة، وهو ما ألف في هذا الموضوع، وقد بقي زمانًا طويلًا الكتاب الوحيد من نوعه. طبع في المطبعة الأميركية. ويُنسب للرازي طريقة استحضار الحامض الكبريتي «زيت الزاج» باستحضار كبريتات الحديد، ويُنسب إليه اكتشاف الكحول.

**سنان بن ثابت:** له عدة رسائل في الطب والهندسة والهيئة والتاريخ، منها كتاب التاجي، قدمه إلى تاج الله عضد الدولة بن بويه.

## الكيمياء والتاريخ الطبيعي:

أشهر من يُذكر في هذا العلم أبو بكر بن وحشية، أشهر تآليفه كتاب الفلاحة النبطية، كتبه زاعمًا أنه نقله عن النبطية. والراجح اليوم أنه تأليفه، ولم يترجمه، أدخل فيه بعض مغامز ضد الإسلام، يقصد من ذلك أن يُظهر بطريقة فنية ما للكلدان من السبق في المدنية، وما في ديانة البابليين من الميزة على الإسلام.

## الهندسة:

للعرب فضل يُذكر في علم الهندسة، نقلوا علوم اليونان وأوصلوها إلى أوروبا في القرون الوسطى مع شروحهم عليها وتعاليقهم، وكان من آثارهم المشهورة أصول إقليدس، وكتاب المجيسطي لبطليموس، والكتاب الخامس والرابع من مخروطات فولمبوس.

**ثابت بن قرة:** أما المشهورون في الرياضيات فهم: ثابت بن قرة، ترك نحوًا من ١٥٠ تأليفًا في العربية و١٦ في السريانية، أهمها ترجمة المجيسطي لبطليموس.

شرح كتاب أرسطو، وكتب مقدمة أصول إقليدس، وله رسالة في حل الصعوبات الموجودة في جمهورية أفلاطون، كان صابئي المذهب، قُطِع من مجمع قومه لآراء أنكروها عليه، عاش بين منجمي المعتضد مقرَّبًا منه، يُقبِل إليه دون وزرائه وخاصته. وكان أيضًا من المبرزين في الطب والفلسفة، ومن النقلة المشهورين.

**أبناء موسى شاكر:** محمد وأحمد والحسن، كان أبوهم في حداثته حراميًّا ثم تاب، واشتهر أبو جعفر محمد في الهندسة والنجوم، واشتهر أحمد في علم الحيل، واشتهر الحسن في الهندسة وكان وافر المقدرة في الاستنتاج، فالحسن هذا لم يقرأ في كتاب إقليدس إلا قليلًا، أما بقية العلم فاخترعه من عند نفسه. كان له مرصد على جسر بغداد، أكثروا بواسطته الأرصاد والتحقيقات في سير النجوم، وألفوا فيها رسالات عديدة، وكذلك في الموازين والأشكال المخروطة، وقياس الدائرة، وخواص الزوايا، وقد ترجم كتابه في قياس الأشكال المسطحة إلى اللغة اللاتينية.

## مساحة المثلثات:

لم يعرف اليونان علم مساحة المثلثات بالمعنى الذي نعرفه اليوم؛ أي تلك الطريقة التي تحوِّل الأعمال الحسابية إلى مثلثات وحل زواياها. فهذه الطريقة السهلة كان الفضل للعرب في اكتشافها، فكان علم الرياضيات.

**البتَّاني:** أبو عبد الله بن جابر البتَّاني، نسبة إلى بتَّان، ناحية من حرَّان. كان أصله صابئيًّا، اشتغل برصد الكواكب في الرقَّة على الفرات مدة ٤٨ سنة، وكان مرصده كثير الآلات الفلكية، بعضها من مخترعاته.

آثاره: أشهرها الزيج الصابي، نسبة إلى دينه، والزيج اسم كل كتاب تُعرف به أحوال الكواكب وحركاتها، ويؤخذ منه التقويم. وهو قسمان، ذكر فيه خلاصة أرصاده ومراقباته ومعلوماته عن النجوم ومجاريها والفلك وطبقاته، تُرجم إلى اللاتينية وطُبع مرات، في الجزء الثالث منه يستعين المؤلف بالمثلثات في قياس أبعاد الكواكب.

قيمته: قال ابن العبري: لا يُعرف أحد في الإسلام بلغ مبلغه بتصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها. وإننا نتحقق ذلك إذا عرفنا التأثر الذي أحدثته ترجمة كتابه في أوروبا، حتى كان أعظم الفلكيين يُعجب به في أواخر القرن الثامن عشر. وكفى البتَّاني فخرًا استبداله أوتاد الدائرة بالجنوب، ووضعه لهذه الطريقة علمًا اسمه علم المثلثات.

**أبو معشر الفلكي:** تعلَّم علم النجوم بعد بلوغه السابعة والأربعين من عمره، وكان مدمنًا للخمرة.

**الفلسفة**:

اختص العصر العباسي الأول، من حيث الفلسفة، بنقل الكتب، فانتشرت بين المفكرين وطالعوها، فما ظهر العصر العباسي الثاني حتى بدءوا بالتأليف من عندياتهم، فكان من فلاسفة العرب الأولين: الكندي والفارابي.

**الكندي:** فيلسوف العرب؛ لأنه عربي الأصل، وهو أمر يستحق الذكر؛ لأن أكثر الفلاسفة الذين كتبوا في العربية كانوا من شعوب غير عربية، ذُكر له مؤلفات بلغ بها بعضهم المائتين، ولم يصلنا منها إلا بعض مقاطع في العلوم مع أربع رسائل فلسفية بترجمتها للاتينية، واحدة منها في

العقل والمعقول، وأخرى في العناصر الخمسة: المادة والهيئة والحركة والزمان والمكان.

**الفارابي:** «المعلم الثاني» — الأول أرسطو — تركي الأصل، أتى بغداد وتعلم العربية، ثم جاء الشام، قصد سيف الدولة بحلب وصحبه حتى مات.

**آثاره:** في جميع العلوم المعروفة في عصره، أشهرها: كتاب المدينة الفاضلة، السياسة المدنية، إحصاء العلوم.

## الجغرافيا والتاريخ:

هي من العلوم الدخيلة عند العرب. قبل الإسلام، كان العرب يعرفون مساكن الجزيرة ومحلاتها، مهتدين بالكواكب بسبب النجعة والقوافل، فهذه معلوماتهم قبل الإسلام. أما بعده، فشعروا بالحاجة إليها، وقد فرض على الجميع الحج، فلزمهم معرفة موقع المدينة ومكة وطرقاتها والقبلة، باتجاههم إليها وقت الصلاة، والفتوحات التي جعلت البلدان تحت سلطة الخلفاء، فكان من اللازم معرفة مواقعها وبُعد بعضها عن بعض ومحصولاتها، ليسنُّوا عليها الخراج، وليتمكن أصحاب البريد الوصول إليها بلا تردد، فتسهل المواصلات، وكان قد ترجم النقلة كتاب الجغرافيا لبطليموس، فدرسه الناس وتوسعوا فيه، وكان أول عملهم شرح هذا الكتاب، حتى كان العصر العباسي الثاني، فألفوا الكتب الخاصة في الجغرافيا العربية. وأهم المؤلفين في هذا العصر هما: ابن قرادية واليعقوبي.

**ابن قرادية:** فارسي الأصل، نشأ ببغداد، واشتهر بكتاب المسالك والممالك، طُبع في مجلة أسيوية. منه فوائد كثيرة تاريخية، فضلًا عن تقاسيم المملكة وطول المسافات بين البلاد.

**اليعقوبي:** تآليفه: كتاب البلدان، وتاريخ الخلفاء العباسيين.

## (٤-٤) التاريخ:

وُلد في عصر الأمويين ونضج في العصر العباسي، ولم يكن للعرب تاريخ سوى شعرهم في جاهليتهم، أما في صدر الإسلام، فكان من التاريخ سيرة النبي ومغازيه، والحوادث التي وقعت في أيامه وأيام الصحابة، وقد نزع العرب إلى تدوين التاريخ في العصر الأموي، فكتبوا أولًا تاريخ الأمم الأخرى؛ لرغبة الخلفاء والقواد في الاطلاع على أحوالهم عبرة واقتداء، وعلى هذا الأساس بُنيت أسس التاريخ الإسلامي. فقبل الإسلام، كان تاريخهم في الشعر، وفي صدر الإسلام، كان مؤرخوهم الرواة والعارفون بعلم الأنساب الذي تتوقف عليه منزلة القبائل والأفراد، أما أول من دوَّن في التاريخ فهو عبيد بن سارية.

**عبيد بن سارية:** ألَّف كتاب الملوك وأخبار الماضين لمعاوية، وذكر ابن خلكان تأليفًا لابن منبه، المتوفي ١١٦، في ملوك حِمْير وأخبارهم، إذن بدء التاريخ يكون حقًّا في العصر الأموي، بالاطراد من مدح المشاهير في تحقيق الأنساب لأجل العطاء، إنما كل هذا ذهب ضياعًا، وفي العصر العباسي الأول، تمهيد السبيل لتأليف التواريخ العامة والخاصة؛ فابن هشام يكتب سيرة النبي والمغازي والفتوحات.

الواقعي يكتب في الفتوحات والمغازي، ثم طبقات الشعراء لابن سلام، وطبقات الصحابة لابن سعد، وفي العصر العباسي الثاني، ظهر التاريخ بمعناه الحقيقي، وامتاز هذا العصر بكتابة التاريخ العام الشامل لأخبار القدماء والمحدثين، فصار المؤرخون في هذا العصر ينقسمون إلى أربعة أقسام:

مؤرخو الفتوح: البلاذري – فتوح البلدان.

مؤرخو أخبار العرب وشعرائهم وطبقاتهم.

مؤرخو التاريخ الخاص: تاريخ كل بلد وأمة على حدة.

مؤرخو التاريخ العام: الطبري.

**الطبري:** أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، فارسي الأصل، ولد بآمل من أعمال طبرستان. سافر لمصر وسوريا والعراق. أقام ببغداد يعلِّم الحديث والفقه، وفيها كتب تأليفه الكبير. كان في أول عهده شافعي المذهب، ثم اختار لنفسه مذهبًا فلم ينجح. اشتهر بمقدرته على التأليف. قيل عنه إنه كان كل يوم يسوِّد أربعين صحيفة على مدة أربعين سنة. وقد توفي ببغداد.

آثاره: أشهر كتبه تاريخ الرسل والملوك، طبع بعد تعب كثير وعناية عجيبة بأحد عشر مجلدًا، في لندن. وهو تاريخ عام يبتدئ بآدم وينتهي بالطبري صاحبه.

وله كتاب تهذيب الآثار، في الفقه على مذهب جديد اختطه لنفسه، تكلم فيه عن اختلاف الفقهاء الأربعة، فقال ابن حنبل لم يكن فقيهًا لكن محدِّثًا، فنقم عليه الحنابلة فضايقوه. ولما مات دفن ليلًا في داره خوفًا منهم، وله التفسير الكبير، طبع في القاهرة.

**قيمته:** أعظم مؤرخي هذا العصر، بل العرب في كل عصر؛ لأنه جمع في كتابه أخبارًا عديدة كنا خسرناها لولاه، وتاريخه الفريد في بابه هو مختصر تاريخه الأكبر، تراجَع تلاميذه عن نسخه فاختصروه، وهو، فوق كل هذا، مفسر وفقيه ضليع يفوق غيره من المفسرين.

**البلاذري:** من تآليفه: فتوح البلدان. كان شاعرًا وكاتبًا ومترجمًا، ينقل من الفارسية إلى العربية، وقد نشأ ببغداد وتقرَّب من المتوكل والمستعين والمعتز. ذكر في كتابه فتوح البلدان أخبار المسلمين خبرًا خبرًا، وأنساب الأشراف منهم.

**أبو بكر الصولي:** ألَّف تاريخًا للشعراء، رتَّب أسماءهم على أحرف الهجاء. ويُعرف بالشطرنجي؛ لأنه كان ألعب أهل زمانه فيه. أصله من ملوك جرجان. كان نديم الخلفاء. جمع أشعارًا كثيرة كما فعل السكري بالقدماء.

وله تآليف أُخَر في أخبار آل عباس وأشعارهم، ولكنه لم يتمه.

## (٤-٥) الأدب

تحول الأدب في هذا العصر عما كان فيه في العصر السابق، فتقدم لأسباب، منها تغيُّر عقلية الخلفاء والولاة، ومعيشة الشعب، والتأثر بالعلوم المنقولة، لم تبقَ في الخلفاء تلك الرغبة القوية في الاطلاع على أخبار العرب ومنازعاتهم وأمثالهم وحوادثهم الشعرية، التي كانت تدفع الأدباء السالفين كالأصمعي وخلف الأحمر وحماد؛ إلى قطع البراري والتعرف إلى القبائل، لجمع أخبار الشعراء والمتاجرة بها. فانصرف من كان من هذا النوع عن غاية التجارة إلى غاية العلم، فدققوا في صناعتهم، وأخذوا يشتغلون بنوع آخر معها، حتى ندر وجود أدباء لم يشتغلوا إلا بالأدب، أما الأسباب فلأن البيئة أصبحت غير عربية، الحكام أعاجم لا تهمهم أخبار العرب وحكاياتهم، والشعب كأمرائه لا يكترث للعربية، فاعتاض رواته عن الشعر العربي وأخبار العرب، بالقصص من مصدر غريب، مثل ألف ليلة وليلة، وكان أن فساد الحكومة، والنزاع الدائم على الخلافة، ومصائب الخلفاء وكبار القوم، دفع الأدباء إلى تعزية الجمهور المصابين وتخفيف وقع النكبات بالأقوال الحكمية، ومبادئ الزهد، وأخبار رجال الدنيا وأصحاب الفضيلة. فكثرت هذه الأنواع، وحلَّت من كتب العرب مقامًا فسيحًا، أما ما استفاده أدباء العرب في هذا العصر من كتب الأقدمين، فهو روح التقسيم والترتيب، وجمع أطراف الموضوع في مقام واحد، وفصل كل موضوع عن غيره، فقاموا يميزون بين الأدب والنحو واللغة، يجمعون مظاهر كل فن في كتب مستقلة، يبوِّبونها بطرق مرتبة سهلة المأخذ.

**قدامة بن جعفر:** كاتب بغدادي، كان أبوه نصرانيًّا وأسلم في أيام المستكفي.

آثاره: ألَّف كتبًا عديدة لم يصل إلينا منها إلا كتاب الخراج في الجغرافية، وكتاب نقد الشعر، ونقد النثر. وهذان الكتابان الأخيران من خير ما كُتب في ذلك الزمان.

**الوشاء:** عاش في أواخر القرن الثالث للهجرة، أديب ظريف نحوي، له تآليف لم يصل إلينا منها إلا كتاب الموشَّى، الفريد في بابه، وهو يمثل ذلك العصر، ولا سيما وصف الأدباء، على اختلاف الطبقات، بما كانوا يكتبونه من الأشعار عن الشباب والعصائب.

**ابن قتيبة:** أديب نحوي قاضٍ، ولد في الدينور فنُسب إليها. علم ببغداد. جمٌّ المعارف، واسع الاطلاع، جريء في قول الحق، ألَّف بالحديث والأدب واللغة والتاريخ.

**آثاره:** كتاب الشعر والشعراء، فيه تراجم الشعراء والمشهورين الذين يعرفهم جلُّ أهل الأدب، ويُحتج بأشعارهم في النحو وكتاب الله، وهم المشهورون من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام زمن المؤلف، وقد أورد أمثلة من أشعارهم ونظر فيها وانتقدها.

-أدب الكاتب: يحتوي على ما يحتاج إليه الكاتب الأديب في صناعة الكتابة من الاطلاع على الآداب والعلوم، مع إصلاح ما كان يقع فيه الكتَّاب من الغلط والوهم في معاني الكلمات والتركيب، وقسَّمه إلى ثلاثة أقسام: (١) إقامة الهجاء؛ أي الإملاء. (٢) تقويم اللسان. (٣) الأبنية.

لُخِّص هذا الكتاب وشُرح ثلاث مرات. وله كتاب الشعر الكبير، خُطَّ بالقسطنطينية. وكتاب عيون الأخبار، عشرة كتب، طُبع حديثًا في مصر.

وله في غير الأدب كتب عديدة:

**(١)كتاب المعارف:** وهو خلاصة تاريخ الخلفاء والصحابة ومغازي النبي وأحاديث القرَّاء وأهل العاهات وأخبار ملوك العجم.

**(٢)الإمامة والسياسة:** تاريخ الخلافة من وفاة النبي إلى عهد المأمون مع شروطها.

**(٣)التسوية بين العرب والعجم:** فيه تفضيل العرب على العجم.

**(٤)كتاب الرحل والنزل:** في اللغة.

**قيمته:** عالم باللغة والنحو، والتاريخ والفقه والأدب. وهو أول أديب اشتغل بالأدب مع غيره من العلوم. أما ما يهمنا الآن فهو قيمته في الأدب.

لقد استفاد كثيرًا من علومه المختلفة، فأدخل روحًا جديدًا في الانتقاد؛ أي إنه كان جريئًا تجاوز نقد الظاهر إلى المعنى، ففنَّد كثيرًا من مصطلحات الأدباء، ومن اطلع على كتابه، عيون الأخبار، يرى فيه شيئًا من كل آداب الأمم.

## الجاحظ:

**ترجمته:** اسمه أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. جده عبدٌ أسود كان جمَّالًا لعمرو بن الكناني، وُلد في البصرة، وكان في أول عهده بيَّاع خبز وسمك. لقِّب الجاحظ لدمامة خلقه، وجحوظ عينيه. استدعاه المتوكل لتهذيب ولده، فاستبشع سحنته، فصرفه بعد أن أمر له بشيءٍ من المال.

**انتحاله:** كتب في أول عهده، ونسب ما كتبه إلى الأقدمين كابن المقفع وسهل بن هارون.

**سجنه:** سجن في عهد المتوكل، عدو المعتزلة. وسبب سجنه طريقته «الجاحظية» المعروفة باسمه، وهي تخالف آراء السنَّة والمعتزلة.

**دينه:** قال ابن أبي دؤاد: أثق بظرفه، ولا أثق بدينه.

**مرضه:** أصيب في آخر حياته بالفالج، وفي ذلك قال:

**عليل في مكانين من الأسقام والدين**

وكان يقول: وماذا تصنع بلعاب سائل، وشقٍّ مائل، ولون حائل! ومما قاله لابن أخته: لم يبقَ لي من ملاذ الدنيا إلا ثلاث: ذمُّ البخلاء، وحكُّ الجرَب، وأكل الحديد.

**الجاحظية:** كان بادئ أمره تلميذًا للنظام، والنظام كان يسير على مبادئ أرسطو وتلامذته، محكِّمًا العقل في الوحي، أما الجاحظ فرأى جفاف تلك الفلسفة «اليونانية المنطقية»، فلجأ إلى تطبيق مبادئه على التاريخ والاختبار، فانفرد عن المعتزلة وأسس مذهبًا جديدًا في الفلسفة اللاهوتية، عُرف «بالجاحظية».

**المعتزلة**

مبادئها

(١) القول بالمنزلة بين المنزلتين، «كقضية المطهر في الكثلكة»

(٢) القول بالقدَر، وأن الله لا يخلق أفعال الناس، بل هم يخلقون أعمالهم، ومن أجل ذلك يثابون ويعاقبون.

(٣) التوحيد؛ أي إن الله ليس له صفات أزلية زائدة على ذاته.

(٤) القول بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح، ولم يرد بهما شرع؛ أي إن الشرع لم يجعل الشيء حسنًا بأمره به.

**الجاحظية**

أما الجاحظية فتخالف المعتزلة فيما يأتي:

(١)ليس للعباد كسب سوى الإرادة، أما الأفعال فجبرية يأتيها العباد طبيعة. فيستنتج من هذا أن لا فضل لهم بالعمل، ثم يتخطى إلى أنه لا ثواب ولا عقاب، كما لا يثاب الإنسان ولا يعاقب على تركيب بدنه ولونه.

(٢)أهل النار يصيرون إلى طبيعة النار ولا يدخلون فيها.

(٣)الجاهل بالله معذور والعالم محجوج.

(٤)خلق القرآن.

**شكله:** كان شنيع الشكل بشع الصورة، وقد قيل فيه: لو يخلق الخنزير خلقًا ثانيًا ما كان إلا دون قبح الجاحظ

**ثقافته:** أخذ العربية من المبرد ومن الأصمعي وأبي زيد، واليونانية من مناظرة علماء الكلام ومشافهة حنين بن إسحاق وابن سلمويه. وحذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وأخذه عن أبي عبيدة. وتوسع في الثقافات كلها من مطالعة الكتب كلها، فعرف المسيحية كما فهم اليهودية والمانوية، فجاءت ثقافته مجموعة ثقافات، ولقد كان الزمان أكبر مثقِّف للجاحظ؛ فقد وُلد في خلافة المهدي، ونشأ في خلافة الهادي، وشبَّ في عهد الرشيد، وشهد صراع الأمين والمأمون، ونضج في عهد ازدهار المعتزلة، واشترك في جميع الأبحاث العلمية والفلسفية، رأى الفرس وغلبتهم، والترك وسطوتهم وحلولهم محلَّ الفرس. كما عاين دولة الواثق تنهج نهج المعتصم، والمأمون يناصر الاعتزال، والمتوكل يشرِّدهم. ومرت عليه دولة المنتصر والمستعين والمعتز، وهو يعاني الفالج والنقرس، حتى مات في عهد المهتدي بالله، فحياة الجاحظ تاريخ قرن بكامله، وهو زهرة القرون العباسية، وقد مر في كل أطوار الحياة؛ من ولد يبيع خبزًا وسمكًا بسيحان، إلى رجل يخالط العلماء، إلى كاتب مثقف يغتني بما ألَّف، ويمتلك ضيعة تنسب إليه، ويبني قصرًا، ويقتني عبيدًا خدموا في قصور الملوك، وقد رحل إلى بغداد زمنًا، ثم إلى دمشق وأنطاكية، وهذه ثقافة جديدة اكتسبها من غير الكتب بدرس طبائع الناس وأخلاقهم ومعرفة دخائلهم، ولهذا ترى في كتبه شيئًا ملموسًا عن الحياة، فكأنك تراها وتذوقها من وصف الجاحظ، وهذا لا تراه إلا في كتب الجاحظ. فكامل المبرد، وأمالي القالي، وعيون ابن قتيبة، لا تريك شيئًا من هذا؛ ولهذا نرى كتب الجاحظ أغزر مصدر لدرس الحياة الاجتماعية في هذا العصر.

**كتبه:** كتب الجاحظ في كل شيء؛ من صفات الله إلى القيان والحُول والعور، والحيوانات والدبابات والحشرات. مزج العلم بالأدب، نظريات وتجاريب، أخبار وحوادث واقعية. مزج الشعر الجاهلي بالإسلامي، بعلم أرسطو، بطب

جالينوس، وآي القرآن بالحديث، ورأي الطبيعيين والدهريين، واليهودية بالنصرانية والزردشتيين والمانويين.

**أسلوبه:** مزج كل هذه الأشياء ببعضها، والقارئ يقبلها منه لخلطه الجد بالهزل، ومزج اللقمة بكثير من الحلوى، حتى إذا أعدَّك للبكاء، رماك بنادرة تمعن منها في الضحك. واضح البرهان، جزل اللفظ، سريع التنقل من حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة. غلبت عليه النزعة الأدبية في كل ما كتب، حتى في كتاب الحيوان. يتخير خير الألفاظ وأحسن التعبيرات، ويفر سريعًا من الأسلوب العلمي إلى مناحي الأدب، من شعر أو حكمة أو نادرة.

**البيان والتبيين:** آخر ما ألَّف الجاحظ، بدأ بالتعوذ من العِيِّ، وساق الشعر في ذمه، وانتقل إلى فصاحة اللسان، ثم إلى اختلاف لغات العرب. وتكلم عن اللثغة، ومنها انتقل إلى عيوب اللسان، فنحنحة الخطباء، وعدَّد كثيرًا منهم، ثم تكلم عن الألفاظ المتنافرة، وتوصَّل منها إلى اللكنة.

هذا في الباب الأول، ثم عقد بابًا للبيان، وذكر بلغاء وخطباء وأنبياء وفقهاء وأمراء، ثم تكلم عن البلاغة واللسان والصمت، وأسماء كهَّان وعلماء قحطان وأمرائهم...إلخ، أما الجزء الثاني، ففيه يقول: إنه ردٌّ على الشعوبية، ولكنه روى الأحاديث والخطب والألغاز والحكم، وتكلم عن اللحن والحمقى والمجانين، وكتب وصايا ونوادر لبعض الأعراب...حتى إذا أتمَّ الجزء الثاني جاء الجزء الثالث، وأوله كتاب العصا في الرد على الشعوبية، ثم كتاب في الزهد، تكلم فيه عن النساك وكلامهم وأخلاقهم ومواعظهم، ثم باب في دعاء السلف الصالحين والمتقدمين، ودعاء الأعراب، ثم مقطعات في نوادر الأعراب وأشعارهم.

**الحيوان:** كتاب الجاحظ الشهير، ألَّفه لبيان الحجج على حكمة الله السامية وقدرته العجيبة...إلخ، ومما قاله: إن أهمية الحيوانات جعلت سورًا من القرآن الكريم مسماة باسمها، كسورة البقرة، وغيرها، وهذا الكتاب مزيج

أيضًا من جد وهزل وحكمة وتاريخ وعلم، إلى لذع وإحماض ومجون مكشوف، ويخبر الجاحظ أنه في هذا الانتقال العجيب يصادف عناءً ما كان يصادفه لو كتب في موضوع واحد، أما مصادر هذا الكتاب فكثيرة: القرآن، التوراة، الإنجيل، حديث، أخبار، أشعار، أمثال مضروبة، كُتب قرأها في فنون شتى، محادثة أطباء وتجَّار وذوي حرف، وتجارب جربها بنفسه في الحيوان والنبات، وسَفَر وسماع لمن مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحاري وسلك الأودية، وفي كل ما حدث لم يقبل عقله خرافة، بل يهزأ بمن يقبلها، وهو يشك، حتى يجرب وتثبت النظرية. وهو يلاحظ في أبحاثه ملاحظات كأنه فيها من علماء هذا الزمان، إن الثقافات التي وصفنا الجاحظ بها تظهر في كتابه هذا أكثر منها في كتابه الأول، فمن أهم العناصر التي اعتمد عليها الجاحظ في كتاب الحيوان، ما كتبه أرسطو عنها، وهذا الكتاب نقله إلى العربية ابن البطريق، كما يقول ابن النديم في فهرسته صفحة ٢٥١، قد ذكر الجاحظ أرسطو في كتابه باسم صاحب المنطق؛ أي أرسطو، وصرح باسمه أيضًا. إن موقف الجاحظ منه كان موقف العالم الجريء، فلم يُصَب أمامه بشلل الفكر، كما أصاب ابن سينا وغيره من الفلاسفة في الشرق والغرب، إذ لم يقدموا على مناقشته.

أما الجاحظ، فكان يضع أرسطو في مخبره يمتحنه ويجربه، ويخطِّئه أحيانًا، ثم يقارن بين قول أرسطو وبين قول شاعر جاهلي أو إسلامي، ويفاضل بينهما، فيكون طورًا مع أرسطو وحينًا عليه، وإليك برهانًا هذه الحكاية، قال الجاحظ: زعم صاحب المنطق أنْ قد ظهرت حية لها رأسان، فسألت أعرابيًّا عن ذلك، فزعم أن ذلك حق، فقلت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعض؟ فقال: أما السعي، فلا تسعى، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب، كما يتقلب الصبيان على الرمل؛ وأما الأكل، فإنها تتعشى بفم وتتغدى بفم؛ وأما العض، فإنها تعض برأسيها معًا. وختم القصة

بقوله عن الأعرابي: «فإذا به أكذب البرية»، فلا يظنن أحد أن كتاب الحيوان لا يتناول إلا الحيوان فقط، فهو فيه كثير التنقل من موضوع إلى آخر كما وصفناه. ففيه شيء من علم الفراسة عن أقليمون، ومن الطب عن جالينوس، وفيه يتكلم عن الفرس وأديانهم، وعن اليهودية والمسيحية، وعن أشياء لا تخطر ببال، وقصارى الكلام، أن كتاب الحيوان معرض لكل الثقافات: عربية ويونانية وفارسية وهندية، ومعرض أيضًا للثقافات الدينية: مانوية وزردشتية ودهرية ويهودية ونصرانية وإسلامية، وقد أثَّر أسلوب الجاحظ هذا فيمن كتب بعده، فجاءت كل كتب الأدب تقريبًا غير مبوَّبة، يكثر فيها الاستطراد.

**كتاب البخلاء:** لم يكتب كاتب في مواضيع مختلفة كما كتب الجاحظ، وقد أعرب في كل موضوع عن مقدرة لا يضارعه فيها أحد، فهو في كل موضوع من موضوعاته يعرب عن شخصية جديدة، وإنه في بخلائه غيره في الحيوان والبيان والتبيين، ولعله أول من عني بالأسلوب العلمي في كتاب الحيوان، وإن كان يستطرد إلى حكايات تنفي الملل عن القارئ، وهو أول من عني بالألفاظ الوضعية التي تؤدي الفكرة على حقها، بألفاظها الوضعية، وقد صارت هذه الألفاظ أداة للأسلوب الذي ابتدعه، ويخال القارئ أن كتاب البخلاء حكايات ونوادر مضحكة، مع أنها أعمق دراسة للنفس البشرية، تحل الأعمال وبواعثها وأغراضها، فالجاحظ هنا عالم نفساني قبل أن وجد هذا العلم، يمارس بلباقة لا توصف بين النظرية والتطبيق، فيجلو لنا الأشخاص أيما جلاء، وكتاب البخلاء تناول ناحية واحدة من النفس، هي البخل، فقلَّبها على جميع وجوهها، ونظر إليها من كل جانب، ولو عني الجاحظ في جميع مناحي النفس لجاء عمله تامًّا، ولكنه وضع أساسًا لهذا العلم وشقَّ طريقه للناس، فلو طلبنا اليوم إلى أكبر علماء النفس أن يحلل نفسية البخيل ما استطاع أن يكتب مثل كتاب البخلاء، لا من حيث التحليل الدقيق، ولا من حيث الفن الرائع، وإذا ضاهاه أحد في فن القصِّ قصر عنه

في الفكاهة والسخر العميق، ولئن كتب موليير واصفًا بخيلًا واحدًا، فالجاحظ لم يدع بخيلًا يفلت منه، وكل ذلك بروح مرحة ونفسية فكهة ساخرة. مزج الجد بالهزل، والفلسفة بالفن، والتفكير بالاطلاع الواسع، واستطاع أن يكون مصوِّرًا يحسن رسم الشخوص ومزج الألوان. يروح ويجيء بخفة الطير. هو قصصي ماهر يجيد سَوْق قصته إلى غرضه. وإني لإخال الجاحظ قد عرف هؤلاء الأشخاص الذين تحدث عنهم وعايشهم، فأحسن تصويرهم ولم يدع خطًّا واحدًا، ولست أظن أن أحدًا يستطيع أن يكتب بمثل هذا التفصيل قصة بخيل كالكندي، صاحب بيوت الكراء في البصرة، إن الجاحظ مطبوع على الجدل، ولهذا نرى في بخلائه هذه الصفة بارزة جدًّا، وخذ مثلًا لذلك عبد الرحمن آكل الرءوس، لترى كيف يغوص الجاحظ على الأعماق، فينتقد ويجادل حتى يشبع نفسه المتعطشة إلى مثل هذا الكلام، ومن عادة القصصي أن يعرِّفك بمن يتحدث عنه، بوصفه لك ظاهريًّا، أما الجاحظ فما عمل شيئًا من هذا، ولكنه رسمه لك نفسيًّا فتتخيل أنت ظاهره، إن كتاب البخلاء أثر فني فيه روح القصص وحكمة الفيلسوف الناقد الاجتماعي.

**خلاصة**:

الجاحظ أقدر الناس حجة، يستهزئ بكل أمر، حاضر النكتة، شخصيته بارزة في كل شيء؛ ففي حياته شخصية بارزة لا تمتزج بغيرها من الشخصيات، وفي آرائه متكلم شخصي، وفي إنشائه أديب شخصي، هو الرجل الذي يكوِّن نفسه ويطبعها على غرار خاص. وكلمة «نسيج وحده» كأنما كُتبت لتقال في الجاحظ، وإذا كان الأدب هو الإلمام بكل فن، فالجاحظ هو الأديب، هو الكاتب الفريد الذي يأسر قارئه، وإن حدَّثه عن أتفه الأشياء.

**الترتيب:** لا ترتيب ولا نظام عنده ولا تبويب فيما يكتب، فأسلوب الجاحظ هو أنه لا أسلوب له، وأسلوبه منبثق من شخصيته، هو أشبه بديكارت القائل

لخادمه: لا تخربط عدم نظام مكتبي، والجاحظ في الشرق، كفولتير في الغرب؛ هو مزيج من كل ما عرفه العرب من ثقافات.

**عود إلى ابن قتيبة:** صاحب عيون الأخبار هذا، هو بالجاحظ أشبه من حيث امتزاج الثقافات، وقد ألَّف مثله، إنما كان أكثر ترتيبًا. عاصر الجاحظ، وانتقده بأنه يعبث بالدين وبكل شيء، فهذا رجل جدٌّ ودين من رؤساء أهل السنة، مطلع كل الاطلاع على التوراة والإنجيل، وقد أكثر النقل عنهما، وبكلمة مختصرة، نقول: إن ثقافته واسعة دينيًّا ومدنيًّا، ولكن ليس في أسلوبه طلاوة الجاحظ.

**********

# الفصل الثالث:

# العصر العباسي الثالث

## أولا: الشعر والشعراء

**ضعف الخلفاء:** في أيام القاهر كان مبدأ دولة بني بويه، وذلك سنة ٣٢٠. أدى إلى ذلك استبداد الأتراك بالسلطة، فاختلَّ نظام الملك، وكثرت الفتن والثورات، فاستقلَّ كل حاكم بالبلاد التي يحكمها، وفي سنة ٣٢٣ اضطر الراضي أن يقلد محمد بن رائق الوزارة وإمارة الجند، ولقَّبه أمير الأمراء. وخُطب لابن رائق في البلاد على المنابر، وفُوِّض إليه الخراج في جميع البلاد، ومن ثم أصبحت الخلافة رسمًا دينيًّا صوريًّا، وأصبح الخليفة وليس بيده من سياسة الملك شيء، بل الأمر كله بيد أمير الأمراء، وليس للخليفة إلا الخطبة والسكَّة، بل يشركه في الخطبة أمير الأمراء، فانقسمت المملكة هكذا: لم يبقَ للخليفة غير الخلافة وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق، أما باقي الأطراف فكانت: البصرة بيد ابن رائق، وخوزستان بيد أبي علي محمد بن إلياس، والري وأصفهان والجبل في يد ابن بويه ركن الدولة، وهو وشمكير بن زيار يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد الإخشيد محمد بن طغج — وإخشيد لقب ملوك فرغانة ومعناه ملك الملوك — والمغرب وأفريقيا في يد القائم العلوي، والأندلس في يد الناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين وعمان في يد أبي طاهر القرمطي، أما الراضي فمات سنة ٣٢٩، وهو آخر خليفة انفرد بتدبير الخلافة، وآخر خليفة خُطب له على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة كانت نفقته وخدمه وحجابه وكل شئونه على قواعد الخلفاء المتقدمين. أما إمارة بني

بويه، فأعلنها المستكفي ولقَّبه معز الدولة، ولقَّب أخاه حسنًا ركن الدولة، ولقَّب أخاه عليًّا عماد الدولة، وضرب أسماءهم على النقود. ولما عزم المستكفي على الفتك بابن بويه، شعر ابن بويه بذلك فخلع الخليفة سنة ٣٣٤ وسجنه حتى مات ٣٣٨، وسلب بنو بويه كل سلطة الخلافة، ولم يبقَ للخليفة إلا كاتب يدير أملاكه. واستعاد معز الدولة بن بويه مدنًا كثيرة حتى بلغ ما لم يبلغه قبله إلا الخلفاء، أما دولة الفاطميين، فظهرت سنة ٣٥٨ على يد جوهر القائد، فبايع الناس الفاطميين وانقطعت الخطبة عن بني العباس، وبنى جوهر القاهرة لإسكان الجند فيها. وأول خليفة دخلها هو المعز سنة ٣٦٢، ثم ملك دمشق وغيرها، وفي أواخر هذا العصر، ضعفت الدولة الأموية في الأندلس حتى انقرضت سنة ٧٠٤، بعد أن دامت ٢٦٨. وقسِّمت، وامتلك كل عامل المنطقة التي كان يحكمها، وذلك كما جرى في الدولة العباسية كما رأيت. وظلت تنتقل في يد ملوك الطوائف إلى أن خرجت من المسلمين تمامًا في أيام بني الأحمر سنة ٨٩٧.

**اللغة في هذا الطور:**

رأيت فيما تقدم تجزؤ الدولة، وفي كل هذا لم يستغنِ الأمراء عن اتخاذ اللغة الفصحى العربية لغة رسمية في التعبد والتعليم والسياسة، إلا أن هذه اللغة اصطبغت بصبغة قومية في بعض أحوالها.

**فارس والعراق:** فالفرس في العراق وفارس وخراسان، حاولوا إنشاء آداب جديدة بلغتهم الفارسية الحديثة، فأفلحوا في الأدب، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوها لغة العلم والاشتراع والتعليم والسياسة؛ لخلوها من الاصطلاحات الحديثة، فظلت اللغة العربية صاحبة النفوذ والسيادة في جميع الممالك الشرقية التي اشتُقت من الدولة العباسية، ببذل كل ملك جهده في ترغيب العلماء والأدباء والكتاب والشعراء والأطباء والمهندسين في الإقامة عنده، تأييدًا لملكه وزينة لدولته، فبقيت سوق الأدب رائجة أكثر من قرنين، ثم

اضمحلَّت بالتدريج بتغلُّب النزعات القومية، وانقراض العلماء والأدباء المطبوعين بطابع الدولة العباسية، حتى خرج التتار، في أواسط القرن السابع، وخربوا ملكهم وقتلوا علماءهم وبددوا كتبهم، فجمدت اللغة العربية في أواسط آسيا جمودًا لم تنتعش بعده.

وقد عاش شعراء كثيرون في هذه الممالك الشرقية يكتبون في دواوينها، ويمدحون وينادمون ويُملُون في مدارسها، ومنهم من كان يتنقل من مملكة إلى أخرى. لم يجاروا شعراء الشام ومصر والجزيرة والأندلس لأنهم في بيئة أعجمية، ومع ذلك سلكوا مسلك الشعراء المتقدمين في أغراضهم من مديح وغزل ورثاء ووصف وفخر، بضعف قليل في البلاغة واختراع المعاني، إنما حدث الشعر التهكمي المضحك على لسان ابن سكَّرة وابن حجاج في بغداد، ثم انتشر هذا النوع، وهو بمنزلة جرائدنا الهزلية اليوم، وظهر نوع آخر، وهو شعر فلسفي يشرح بعض الحقائق الفلسفية وحركة الأجرام السماوية؛ كشعر ابن سينا والرازي وابن التلميذ الطبيب، وشعر آخر صوفي رمزي نشأ في العراق ثم انتقل إلى الشام ومصر، كما في شعر الحلاج والشبلي والقشيري، وهجر الشعراء استعمال الغريب من اللفظ والغويص من الأسلوب، واستعملوا ألفاظًا أعجمية واصطلاحات فنية ومحسنات بديعية وألفاظ مجون وسخف، أما المعاني المخترعة فكانت في شعر البغداديين؛ لأنهم فاتحو باب الهزل، الفن الجديد، ولكن بين شعرائهم الهزليين شعراء ألمُّوا بالمعاني الشريفة والأخيلة الرائعة، وتنزهوا عن هذا الخليع؛ كالشريف الرضي ومهيار الديلمي، وقد كان شعر أهل العراق عامة أرقَّ أسلوبًا وأفصحَ لفظًا من شعر أهل فارس وخراسان.

**مصر والشام:** انتشر العرب في مصر والشام بعد الفتح الإسلامي؛ لخصبهما وقربهما من الجزيرة، فغلبت لغتهم وآدابهم ودينهم على لغة الروم والقبط، ولما ضعفت بغداد، وقعت مصر في أيدي الطولونيين فالإخشيديين

فالفاطميين غنيمة باردة، فكانت مصر أخيرًا عاصمة لخلافة عربية علوية ضخمة ذات حضارة عالية، وعاشت هذه الدولة ٢٧٠ سنة، فصبغت مصر والشام بصبغتها في بعض الاعتقاد، وأكثر العادات والأعياد، وكانت حضارتها في الصناعات أساسًا للفن العربي الإسلامي، إلى وقتنا هذا، وقد أحبَّ وزراء هذه الدولة وأمراؤها وخلفاؤها العلمَ والأدب والشعر أقصى محبة، فهاجر الأدباء إلى مصر من كل فجٍّ، فجلس الخلفاء للشعراء في الأعياد يستعرضون بضاعتهم وأجازوهم أسنى الجوائز، ولم يُخمد هذه الشعلة المدنية إلا نشوب الحرب الصليبية ومنازعة مواليهم لهم كما أصاب الدولة العباسية، فأباد صلاح الدين الأيوبي خلافتهم الفاطمية، وأسس دولة كردية في النَّسَب مستعربة في اللسان والنزعة، على أنقاضها. انتفعت الدولة الأيوبية بحضارة الفاطميين، وأحلَّت محلَّ مذهبهم الشيعي الباطني، مذهب أهل السنة. أما المملكة الأيوبية فقوَّضها مماليكها التركمان.

## الشعر:

كانت دار الخلافة أي معرض للأدباء والعلماء والشعراء والكتَّاب، يهاجرون إليها من مصر والشام اللتين لم تكونا في شباب الدولة العباسية إلا ولايتين مرجعهما بغداد، فكان الشاعر المشهور لا يطير صيته إلا إذا هاجر إلى بغداد، كما حصل للبحتري وأبي تمام، أما الأديب والشاعر والعالم الذين لا يقوون على المهاجرة والأسفار فيظل ذكرهم خاملًا، ولهذا لم تكن الفسطاط والإسكندرية ودمشق بيئة صالحة في ذلك الوقت لإقامة الشعراء، ولكن لمَّا ضعفت بغداد قاسمتها مصر والشام العناية بالأدب والشعر والفنون، فعاش فيهما شعراؤهما ولم يرحلوا إلى غيرهما إلا قليلًا، والمثل دويلة سيف الدولة الصغيرة في شمالي الشام، فقد التفَّ فيها حول أميرها جمهرة من الشعراء والأدباء والفلاسفة والنحاة...إلخ، من الشام ومختلف الأقطار، من لم يُرَ مثله

في باب خليفة، بل إن شاعر سيف الدولة لم يبالِ بخليفة بغداد ووزيرها المهلبي عند مروره بها قاصدًا عضد الدولة، فالشعر زمن الأيوبيين والفاطميين لم يطَّرد تقدمه؛ لطول هذا العصر وتقاصر همم الملوك في أواخره عن معاضدة أهله، فانصرف الشعراء أخيرًا إلى الخدمة في الدواوين، وظلوا ينظمون الشعر إما تكمُّلًا وتظرُّفًا أو تملُّقًا للرؤساء وتقرُّبًا منهم، لذلك كان مبدأ هذا العصر بمصر والشام نهاية ما وصل إليه الشعر العربي من الارتقاء، كما في شعر المتنبي وأبي فراس والمعري، لقرب عهدهم بالعصر العباسي السابق وتأدُّبهم بأدبه، وأخذ الشعر يتحول رويدًا رويدًا إلى صورة وطنية قومية، بسبب ما نشأ في مصر والشام في قرنين من حضارة خاصة ومذاهب مختلفة شيعية وباطنية وصوفية وسنية، وكلها ذات تقاليد ورسوم حديثة، وبسبب ما دهم البلاد من الحروب الصليبية التي غيَّرت مجرى الحكم ونُظُمه وطرق الكسب والمعيشة، وشغلت الناس عن الاستزادة من العلم والأدب.

**صفات الشعر:**

بقيت فنون الشعر وأغراضه كما كانت قديمًا مستعملة في الشام ومصر، ثم استدعت حوادث العصر السياسية وتشكيل التربية الخلقية والأدبية والثقافة العلمية خصوصًا؛ بعض توسع في أغراض الشعر القديمة، أو تنويع فيها أو زيادة عليها، فكان ما يأتي: أنْ توسَّع شعراء الشام في وصف الطبيعة، وذلك قبل أن تجتاح بلادهم الحروب الصليبية؛ ولذلك سببان:

**الأول:** اتساع مجال الخيال الجميل عندهم، ووفرته لديهم بجمال بيئتهم وكثرة مناظرها الرائعة، كالجبال الشاهقة المكللة الغيوم والثلوج، والمروج والجداول، والحدائق، إلى صحة الهواء واعتدال الفصول وتميُّز بعضها من بعض.

**الثاني:** قرب الشام من العراق، منشأ الحضارة الإسلامية ومنبت علماء اللغة والشريعة والحكمة، وقربها من الجزيرة مهد الفصاحة الأوَّلي، وكان عند أهلها في ذلك العهد بقية منها. واتصالهم بالشام أيسر عليهم من الاتصال بمصر، ولذلك نرى سكان شرقي الشام حتى وقتنا هذا من أهل البدو أو المتطبعين بطباعهم، ولقرب الشام من العراق أبقى فيهم في مطلع هذا العصر مَلَكة التكمُّل بالمعرفة والعلم، والتزوُّد من العلوم الإسلامية، والفلسفة المنقولة عن الأوائل، التي رسخت في أذهان نشء هذا الزمان بالعراق والجزيرة وشمالي الشام، كل هذا من الأسباب التي تنمِّي مادة الخيال، وتجمِّل صوره وتشكِّلها بما لا يحصى، ويجود اللفظ؛ ولذلك نجد أشهر الوصَّافين من الشاميين؛ مثل كجاشم والصنوبري والوأواء، فكجاشم من الرملة فلسطيني، والصنوبري حلبي من شعراء سيف الدولة، والوأواء دمشقي وهو القائل:

**فأمطرت لؤلؤًا من نجرس وسقت وردًا وعضت على العناب بالبرد**

وتوسَّع شعراء الشام في وصف المعارك الحربية؛ لكثرة وقوعها بين دول الجزيرة والشام ومصر من جهة، والروم البيزنطيين والإفرنج الصليبيين بعدئذ من جهة، فشعراء سيف الدولة؛ كالمتنبي وأبي فراس والنامي والببغاء، وشعراء نور الدين بن زنكي وصلاح الدين الأيوبي، ممن يجيدون وصف المعارك الحربية (العماد الأصبهاني والجواني ممن مدحوا صلاح الدين)، وتوسَّع شعراء الشام في الحِكَم والأمثال، كما فعل المتنبي، ونقْدِ العادات وشرح الفلسفة وإحسان معاملة الحيوان، كما فعل المعري، وتنوعت التهاني؛ وخصوصًا في مصر، بسبب الأعياد التي كان يقيمها الفاطميون؛ كوفاء النيل، وفتح الخليج، ومولد النبي، والنيروز المصري، وقافلة الحاج، وتنوع الشعر الصوفي بتنوع الكنايات والرموز عن أسراره بالغزل والخمريات ووصف

السير والسرى، ثم خرج عن طريقة الرموز والكتابة إلى تقرير حقائق التصوف وتقسيم مقاماته وأحواله.

**ديباجة الشعر:** كان في هذا العصر لا يزال رصينًا جزلًا ممزوجًا ببعض الغريب، ولا سيما شعراء الشام؛ لغلبة البداوة على أهليه، كما في شعر المتنبي وأبي فراس والمعري، ولما تغلبت الدولة الفاطمية وغلبت حضارتها وعلومها وفلسفتها ورخاؤها، مال الأدباء فيها إلى الظُّرف والتملُّح في كل شيء، فاستدعى ذلك رقة اللفظ، ولطافة المبنى، والميل إلى المحسنات اللفظية، فاشتهرت هذه الطريقة في أواخر العصر الفاطمي بين المصريين من أمثال القاضي الفاضل، وابن سناء الملك، وابن النبيه، وابن مطروح، ثم انتهت بالبهاء زهير، فتبسَّط فيها حتى قربت من درجة لفظ العامة، وسرى هذا الروح إلى شعراء الشام.

# الشعراء:

## ١-المتنبي:

**نسبه:** يرجع لأبيه المعروف بعبدان السقَّاء الذي كان يستقي في الكوفة على جمله لأهل محلة فيها اسمها كندة، ليس إلى القبيلة المعروفة.

**ذاكرته:** يروون عن قوة ذاكرته أنه كان عند ورَّاق، فعُرِض كتاب للأصمعي فيه أكثر من عشرين ورقة، فأطال أبو الطيب النظر فيه، فإذا به قد حفظه، (القصة).

**تحصيله:** تنقَّل به والده عندما رأى نبوغه، فجاء به إلى بلاد الشام، فجالس الكثيرين من علماء زمانه، كالزجاج وابن السراج والأخفش وابن دريد، وغيرهم.

**في اللغة:** حصَّل كثيرًا، حتى سأله مرة أبو علي الفارسي: كم لنا من الجموع على وزن فِعلى؟ فأجابه بلا تردد: حِجلى وظِربى. قال أبو علي: وفتشت كثيرًا فلم أجد لهما ثالثًا.

**حبُّه للسيادة:** دفعه إلى طلب السلطة والمجد، فدعا بعض شبان الكوفة إلى بيعته فبايعوه، فسُجن، فاستعطف الوالي بقصيدة منها:

**تعجَّلت فيَّ وجوب الحدود وحدي قبيل وجوب السجود**

**طموحه:** لم يستفِدْ من هذا الدرس، بل فكَّر بمطمح أعلى، وهو ادعاء النبوة في بادية السماوة، فأخذ يتلو على الأعراب كلامًا منمَّقًا روى بعضه علي بن حامد وهو: «والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار، امضِ على سننك، واقفِ أثر من قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله»، فتبعه بعض القوم من بني كلب وكلاب وعبس، فسجنه لؤلؤ أمير حمص، ثم استتابه وأخلى سبيله. المعري يكذِّب الرواية، أما المتنبي فقد قال عندما سئل عن ذلك: هذا شيء كان في الحداثة.

**طمعه بولاية:** انصرف المتنبي عن هذه الأفكار إلى الأدب، فكان الشاعر الخالد، ولكنه ظل يحنُّ إلى السيادة والولاية، كما يتضح ذلك مما قاله لكافور:

**وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع مَلْكًا للعراقين واليا**

**إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وكفُّك تسلبُ**

فمن حسنات الدهر إلى الأدب العربي أن المتنبي لم يوفَّق في مطالبه الأولى.

**سيف الدولة:** كان ملك حلب، محبًّا للأدب يعرف جيد الشعر ويجيده في بعض أوقاته، أغدق عطاياه على الشعراء منافسًا بذلك الخلفاء حتى قال المؤرخون: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء الكبار ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر.

**اتصاله به:** رآه سيف الدولة في أنطاكية عند أبي العشائر الحمداني، فقدَّمه إلى سيف الدولة وأثنى على مكانته الأدبية.

**لزومه له:** لزم سيف الدولة فمدحه بما لم يمدح به أحد، ويكاد أن يكون نصف شعره في سيف الدولة، فخلد له ذكرًا أبديًّا.

**حساده:** وهذا أكثرَ حسَّاده والواشين به، فجرى له مع سيف الدولة ومع الشعراء حوادث جمَّة لم يسلم بها شرفه من الأذى، وأهمها ضرب ابن خالويه له بمفتاح فشجَّ رأسه.

فترك سيف الدولة، وسافر إلى دمشق، ومنها إلى الرملة في فلسطين فمصر.

**مع كافور:** حلَّ المتنبي دمشق لأنها لم تكن في حكم سيف الدولة، وتعرَّف إلى يهودي يُعرف بابن ملك، فسأله اليهودي أن يمدحه، فأبى ذلك أنفة. وكان كافور يطلب المتنبي من اليهودي، فأجابه المتنبي: أنا لا أقصد العبد، وإن دخلت مصر فما قصدي إلا ابن سيده. فكتب اليهودي لكافور بذلك.

**في الرملة:** وملَّ المتنبي الإقامة في دمشق، فسار إلى الرملة، فخلع عليه أميرها الحسن بن طغج، وحمله على فرس كريم بموكب ثقيل، وقلَّده سيفًا مرصَّعًا، وعلم كافور بذلك، فطلبه من أمير الرملة، فذهب المتنبي إليه، فأخلى له دارًا وخلع عليه، فمدحه بقصائد رائعة انتقامًا من سيف الدولة عدو كافور الألد. وإليك هذا التعريض:

**قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقلَّ السواقيا**

**فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلَّت بياضًا خلفــها ومآقيا**

ومدح أيضًا سيد كافور ابن الأخشيد، فأكرمه جدًّا، حتى صار يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفَّان وفي وسطه سيف ومنطقة بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق.

**طمعه بكافور:** مدح كافورًا طمعًا بالإمارة، علَّله بها كافور، ولكنه لم يصْدُق، فيئس المتنبي، وعوتب كافور على إخلافه الوعد، فقال: يا قوم، من ادعى النبوة بعد محمد، ألا يدعي الملك مع كافور! فحسبكم.

**كافور:** عبد أسود مخصي، مثقوب الشفة السفلى، عظيم البطن، مشقق القدمين، ثقيل البدن. كان عبدًا لأبي بكر محمد بن طغج صاحب مصر، فتوفي عن ولد صغير فانفرد كافور لخدمته واستبد بالملك دونه. ومع كل تلك البشاعة كان داهية ألمعيًّا.

**أنفته:** لما قنط من كافور خرج حانقًا هاربًا من عنده، ونظم فيه قصائد هجو مُرَّة ومقطعات أليمة، فجدَّ كافور في طلبه فلم يدركه، أما المتنبي فلم يعد إلى حلب، بل ذهب إلى بغداد على عهد الخليفة المطيع لله العباسي، ورغب وزيره المهلبي أن يمدحه، فأبى مترفعًا عن مدح غير الملوك، فاغتاظ الوزير وحرَّش به شعراء بغداد فتناوشوه، فلم يجبهم أبدًا، فسئل في ذلك فقال: لقد فرغت من إجابتهم من زمان، بقولي:

**أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول**

**مع ابن العميد:** وقد راسله ابن العميد من أرجان، وهو وزير ركن الدولة، فمدحه وأقام عنده مدة، وله معه مساجلات عدة.

وقد انتقد ابن العميد قصيدته: بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا ... إلخ، فأجابه المتنبي بقصيدة يعتذر عن ضعف تلك، ومطلعها: جاء نيروزنا وأنت مراده، وأصبح يدقق جدًّا فيما يقول في ابن العميد النقَّادة.

**مع الصاحب بن عباد:** راسله الصاحب بن عباد ولم يكن استوزر فلم يجبه، فغاظه ذلك منه وتجنَّد لانتقاده وإظهار معايبه، وهذا سبب عدائه للمتنبي.

**عضد الدولة:** ترك ابن العميد وذهب إلى عضد الدولة فحظي عنده وفاز بأمانيه، ولم يطل إقامته عنده بل رجع إلى بغداد وودَّعه بقصيدة كانت آخر ما نظم.

**مقتله:** خرج من شيراز ميممًا بغداد ومعه كثير من الأموال والتحف، فاعترضه فاتك بن جهل الأسدي مع عدة من أصحابه فاقتتلا، فقُتل المتنبي وابنه محمد وغلامه مفلح.

**السبب:** هجوه ضبة ابن أخت فاتك هذا. حذَّر المتنبي من المكيدة أبو نصر الحلبي، فأجابه المتنبي: أَبِنَجو الطير تخوفني، ومن عبيد العصا تخاف عليَّ؟! والله لو أن مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات، وبنو أسد عطاش لخمس، وقد نظروا الماء كبطون الحيات، ما جسر لهم خف أو ظلف أن يرده، معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين! فقال له أبو نصر: قل إن شاء الله، فقال: هي كلمة مقولة لا تدفع مقضيًّا ولا تستجلب آتيًا.

**دفاعه:** قاتل المتنبي حتى أحس بالضعف، فعمد إلى الفرار، فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

**الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم**

فأجابه أبو الطيب: قتلتني، قتلك الله! وحمل على الأعداء فقُتل.

**رثاؤه:** رثاه معظم شعراء زمانه.

**كبرياؤه:** أدت به إلى المبايعة والنبوة والموت، وكان يرى نفسه مساويًا للملوك والأمراء وأعظم كثيرًا منهم، وكان يشترط على ممدوحيه ألا ينشدهم إلا جالسًا، وألا يقبِّل الأرض بين أيديهم. ولما سئل أن يعيد إنشاد قصيدته واقفًا ليسمعها كل الجمع، قال: لكل امرئ من دهره ما تعودا... وهو مطلع القصيدة المذكورة، وأعاد إنشادها جالسًا، وقد قال فيه من رثاه: كان من نفسه الكبيرة في جيش، ومن كبرياءه في سلطان.

**بخله:** يروي مبغضوه عنه قصصًا كثيرة في البخل، لا محل لذكرها هنا.

**ديوانه:** لم يُعنَ بديوان شاعر كما عني بديوانه، فقد شرحه كثيرون، وكثيرون كتبوا كتبًا بشأنه.

**سير شعره:** لم يُتناقل شعر شاعر تناقل شعر المتنبي، فما كان ينظم قصيدة حتى تتناقلها الألسن وتجوب البلاد. وقد أراد ابن العميد قبل أن يتصل به أن يمحو ذكره فلم يفلح.

**شهرته:** لم يحُزْ شاعر شهرة المتنبي. أما أسبابها فهي:

(١) مقدرته ونبوغه. (٢) كثرة حسَّاده. (٣) تحامل العلماء والنقدة علي. (٤) كان عصره عصر منافسة بين الملوك والأمراء. (٥) إقلاله، فكل شعره ٥٤٩٤. (٦) كان جريئًا في أسلوبه، يحاول أن يوجد لنفسه أسلوبًا خاصًّا، وهذا هو الشاعر.

**قيمة شعره:** عاديٌّ ومسفٌّ في الشعر الذي لا يلائم فطرته، ولا يجاريه شاعر في تصوير ما تتألم منه نفسه، فيرمي إلى الإبداع وإلى إتيان ما يتفرد به. فهو شاعر قوي في مبادئه، قوي في خياله وتصوره، قوي في فلسفته. شاعر بما في نفسه من قوة ونبوغ، يراها فوق كل شيء حتى فوق نفسها.

**مدحه:** نراه قد بالغ كثيرًا في مدحه، وهذا ناتج عن إعمال قريحة لتروي ظمأ الملوك المتنافسين في ذلك الزمان. ومن لاحظ مدح المتنبي يرى أنه كان يعود إليه من مدحه الملوك جزء من المدح يختص به نفسه، وهذا يتفهمه من طالع قصائده المدحية بإمعان.

**فخره:** قد كان يفخر في كل ما ينظم، يفخر في المدح، يفخر في الرثاء، يفخر في الحكمة، والقوة تتجلى في كل ما يقول وينظم. حتى كان يؤدي افتخاره إلى احتقار الملوك، ويفتخر حتى على الفخر كقوله:

**وليفخر الفخر أنني غدوت به مرتديًا خيره ومنتعله**

**حكمته:** ترمي إلى القوة والطموح والمطامع الكبيرة والتفاني والجرأة. ويرى الظلم من طبيعة الناس، ومن لا يظلم، فلأنه عاجز. يحب الوفاء والصدق، ويكره كل تصنُّع.

**معتقده:** في بعض أشعاره نراه مشككًا، وفي غيرها نرى له رأيًا كرأي الدهريين والعدميين:

**تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هنَّ من كسبه**

**فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه**

**تدينه:** لم يكن متدينًا، بل كان رجلًا ماديًّا يحب المال، يعتقد أنه سبب كل عظمة وشرف وفرح في الحياة. ويظهر عدم تدينه من عدم احترامه للأنبياء، وذكرهم كأحد أفراد الناس.

**أفكاره:** عُزي إليه سرقات كثيرة من حيث الأفكار؛ فمنهم من قال إن أفكاره الفلسفية مأخوذة عن أرسطو، وفي كتاب الوساطة شيء كثير يدل فيه مؤلفه على المواطن التي يتفق فيها المتنبي مع الشعراء الذين تقدموه.

**التعقيد:** اعتماده على المعاني جعل في شعره كثيرًا من التعقيد، وارتكب جوازات كثيرة، ومخالفات كثيرة لما ألفه العرب قبله. واستعماله الثقيل والضعيف أكثر السفاسف في شعره، قد أكثر استعمال التصغير للتحقير والازدراء.

**الخلاصة**:

كان المتنبي في شعره كمن يلقي درسًا على الإنسانية أجمع، وكان يرى أن كلامه القول الفصل، يقطع في كل ما يقول، كأن لا خلاف عليه، ولا يعبأ برأي سواه، وهذا جعله مبتدعًا لا متبعًا.

## ٢- أبو فراس:

**نسبه:** هو أبو فراس الحرث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان، ابن عم سيف الدولة الحمداني، أمير حلب، رافق سيف الدولة في غزوات عديدة ببلاد الروم، وأُسر أبو فراس مرتين؛ في المرة الأولى لم يتعدَّ به العدو قلعة خرشنَّة، أما في المرة الثانية فحُمل إلى القسطنطينية، وأقام في الأسر أربع سنين. له

في هذا الأسر قصائد عدة تُعرف بالروميات، وهي رقيقة جدًّا. فيها عتاب شديد لسيف الدولة؛ لأنه لم يسرع إلى المفاداة.

**شخصيته:** كان أبيًّا جدًّا، كبير النفس، فارسًا مقدامًا، شجاعًا عظيم الشأن. مدح ابن عمه سيف الدولة إنما بإباء الملوك وعزة الأمراء. حر الخصال، صادق اللهجة، ملء برديه الأريحية العربية، وكان المتنبي يتجنبه ولا ينبري لمباراته ولا يجاريه، لنفوذه.

**عاطفته:** ظهرت رقته وحنانه وبره ولطف شعوره في منفاه، إذ قال ذلك الشعر الرقيق في رومياته، فوا عجبًا من هذا الفارس الشجاع الذي يفلق الهام، كيف تحوَّل إلى شخص فاقت عواطفه عاطفة الأمهات. فاسمع شعره في روميات تحس هناك عاطفة تتدفق كالبحر الزاخر.

**موته:** لم ينعم أبو فراس بالانفكاك من الأسر حتى داهمته المنية، أراد بعد موت ابن عمه سيف الدولة أن يستقلَّ بإمارة حمص، فاعترضه أبو المعالي ابن سيف الدولة، وجرت حرب بينهما قُتل فيها أبو فراس سنة ٣٥٧، وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين.

**شعره:** فخم المعنى، جزل اللفظ، خالٍ من العيوب التي تراكمت في شعر المتنبي، يجمع بين الحسن والجودة، والعذوبة والفخامة، والسهولة والمتانة. وهو مرآة عواطفه الشريفة، تلمس في شعره رواء الطبع وإباء الشريف، يمشي على آثار السلف فجاء شعره صورة لشعرهم، ولولا العاطفة لما عاش ذلك الشعر، أما ما قاله صاحب اليتيمة عن أن المتنبي لم يمدحه مع أنه مدح من أمراء آل حمدان من هم دونه، وعدَّ ذلك من المتنبي تهيُّبًا لمقام أبي فراس وإجلالًا لا إغفالًا وإخلالًا، فهذا حكم في غير موضعه، فكيف يمدحه أبو الطيب وهو يعلم أن أبا فراس مناظر له، وكان يتعقَّب سقطاته وينسب إليه الأخذ عن هذا وذاك؟!

**الخلاصة**:

إن شعر أبي فراس على نمط واحد ليس فيه ما في شعر أبي الطيب من رديء، ولكن الجو الذي حوَّم فيه أبو الطيب لم يحوِّم شاعر فيه، وقد يكون هواؤه لا يلائم صدورهم فقصروا عن التحويم فيه.

## ٣- الشريف الرضي:

**حياته:** وُلد في بغداد، وتلقى العلوم فيها. اعتقل والده وحُبس وصودرت أملاكه، ثم أُفرج عنه فعادت إلى الشريف غبطته، اتصل الشريف بالخليفة الطائع ومدحه بإخلاص كما مدح القادر، ثم مال إلى بعض الوزراء والملوك طمعًا بالخلافة التي كان يؤمِّله فيها أبو إسحاق الصابي، وتوفي ولمَّا يبلغ منها أربًا.

**آثاره:** ديوان شعر فخم، وجمْعُهُ نهج البلاغة للإمام علي.

**شعره:** موضوعه التغني بحبه وآلامه وآماله، وافتخاره بنفسه وبأصله، قال الغزل بعزة نفس وفخر. قوله فيه مبتكر أحيانًا، وأسلوبه نقي الديباجة فخم، وقال الرثاء صادقًا مخلصًا، وخصوصًا في رثاء الحسين، وقال المدح بعزة النبلاء، وأرسل الفخر رصينًا بلا تبجح، وقد كان فخره بأصله ومكارم أجداده بخلاف المتنبي، وعبارته تقليدية بخلاف عبارة المتنبي، وقد وصف موكب الحج، والشيب والطبيعة، وكان أسلوبه مزيجًا من البداوة والحضارة، سامي الخيال، حافلًا بالصور الرائعة والعبارة المتماسكة.

## ٤- أبو العلاء المعري:

**حياته:** وُلد في معرة النعمان، ومرض صغيرًا بالجدري فانطفأت عيناه، وهو يقول: إنه يذكر اللون الأحمر، وقد أخذ عن والده مبادئ العلم، ثم قصد حلب وتحدث إلى علمائها وزار مكتباتها، ثم ذهب إلى أنطاكية واللاذقية وعاد إلى طرابلس، وأخيرًا قصد بغداد وجالس علماءها في مجالس

العلم والأدب، ولما بلغه نعي أمه رجع إلى المعرة وحبس نفسه في بيته، وسمِّي رهين المحبسين؛ أي العمى والبيت. ترك هو الدنيا فجاءت الدنيا إلى بيته الذي أصبح مزارًا لكبار العلماء والأدباء وطلاب العلم.

**شخصيته:** زاهد في حطام الدنيا، كبير النفس، متوقد الذكاء، تروى عن ذاكرته أخبار كالأساطير. وهو من نوابغ العميان العالميين.

**أبو العلاء الشاعر:** هو شاعر في ديوانَيْه: سقط الزند وضوء السقط. وأغراض هذين الديوانين: فخر ورثاء ووصف ومدح.

**أبو العلاء الفيلسوف:** في ديوان اللزوميات، طرق المعري جميع القضايا التي تشغل العقل الإنساني، واللزوميات مجموعة آراء المعري في المشاكل العقلية، وهو يؤلِّه العقل، وقد عاش نباتيًّا وتحدث عما وراء القبر، وقبَّح الزواج وأساء الظن بالمرأة.

**أبو العلاء الناقد:** في رسالة الغفران، يتولى أبو العلاء النقد اللغوي والنحوي لأنه كان من العلماء، فنَقَدَ الأدب واللغة والتاريخ والمجتمع والدين، وكان في هذه الرسالة ساخرًا من الطراز الأول، يهزل وتحسبه حادًّا، وما هو إلا هازئ بأقدس عقائد الناس.

**قيمته الفنية:** لا يبالي أبو العلاء في لزومياته بخلق الصور البيانية، بل يريد أن يفضَّ مشاكل فكرية، ومع ذلك ظهرت في أسلوبه خاصة الهزء والظرف والفكاهة، وفي الجملة: أبو العلاء والمتنبي هما الشخصيتان العربيتان اللتان لا نظير لهما في قول الحكمة.

**آراؤه ومعتقداته:** إن هذا التضارب والتناقض يظل يواجهنا مع المعري حتى نعلم أنه فاطمي المعتقد. كان معاصرًا للحاكم بأمر الله ومشايعًا له، ومن يتتبع تطوراته الفكرية يظن أنه مضطرب التفكير، في حين أنه ذو عقيدة، مهما كان شأنها، تظل عقيدة، وقد أثبتت الأيام صحة ما تخيل هذا الأعمى الذي رأى ما لم يره المبصرون، ألا تقوى أن تقول إن أبا العلاء كان على

حق بعدما رأيت هذا الفتح المبين في عالم الفضاء؟! أما قَلَبَ هذا الاكتشاف الفضائي المعتقدات رأسًا على عقب؟!

وآخِرًا نقول إن أبا العلاء قد عالج جميع القضايا الفكرية وجمعها في «لزومياته» و«فصوله وغاياته»، فكأنه نظر بعين بصيرته فرأى ما لا يرى قبل حدوثه، وهكذا يكون العبقري حقًّا.

## ٥- الطغرائي:

هذا لقب عُرف به واشتهر، وهو من المتفوقين في عصره في صناعتي المنظوم والمنثور، وأشهر ما قاله شعرًا هو قصيدته التي تعرف بلامية العجم، تقابل لامية العرب. وكلا الشاعرين، الشنفرى والطغرائي يصوِّر لنا في لاميته أروع صورة لحياته وعصره الذي عاش فيه، وكما تمتاز لامية العرب بالوعورة كذلك تمتاز لامية العجم بالسهولة التي سار الشعر إليها، وكما يفتخر الشنفرى بأسلوب حياته الوعر، جاء الطغرائي يتغنى بالحكمة تغنيًا، ويندب زمنًا كان فيه سيدًا، وظل كذلك حتى قُتل، وحكمة الطغرائي بنت الاختبار، ومعانيه مستمدَّة من تجاريبه، كل هذا يبدو لك جليًّا لأول نظرة في لاميته المشهورة، وكان بيت بشار الذي قاله في وصف شعره ينطبق عليها:

**وشعر كنور الروض لاءمت بينه بقول إذا ما أنجد الشعر أسهلا**

## ٦- ابن الفارض:

هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي، أحد أشهر الشعراء المتصوفين، وكانت أشعاره غالبها في العشق الإلهي حتى أنه لقب بـ "سلطان العاشقين"، والده من حماة في سوريا، وهاجر لاحقاً إلى مصر، ولقد ولد بمصر سنة ٥٧٦ هـ الموافق ١١٨١م، ولما شب اشتغل بفقه الشافعية، وأخذ الحديث عن ابن عساكر، ثم سلك طريق الصوفية ومال إلى

الزهد، ثم رحل إلى مكة في غير أشهر الحج، واعتزل في واد بعيد عنها، وفي عزلته تلك نظم معظم أشعاره في الحب الإلهي، حتى عاد إلى مصر بعد خمسة عشر عامًا، ومن شعره قوله:

**زِدْني بفَرْطِ الحُبّ فيك تَـــــحَيّرا وارْحـــــمْ حشىً بلَظَى هواكَ تسعّرا**
**وإذا سألْتكَ أن أراكَ حقيقـــــــةً فاسمَـــحْ ولا تجعلْ جوابي لن تَرى**
**يا قلبُ أنتَ وعدَتني في حُبّهـــمْ صَبراً فحاذرْ أن تَضِيقَ وتَضـــجرا**
**إنَّ الغرامَ هوَ الحيـــــاةُ فمُتْ بـِهِ صَبّاً فحقّك أن تَموتَ وتُعـــــــذرا**
**قُل لِلّذِينَ تقدَّموا قَبـــــــلي ومَن بَعدي ومَـــن أضحى لأشجاني يرَى**
**عني خذوا وبي اقْتدوا وليَ اسمعوا وتحدّثوا بصَبابتي بَينَ الـــــــوَرى**
**ولقد خَلَوْتُ مع الحـــــــــبيب وبَيْنَنَا سِرٌّ أرَقّ منَ النسيمِ إذا سرى**
**وأباحَ طَرْفِي نَظْرَةً أمّلْتُهـــــــــا فَغَدَوْتُ معروفاً وكُنْتُ مُنَكَّـــــــرا**
**فَدُهِشْتُ بينَ جمالِهِ وجَـــــــلالِهِ وغدا لسانُ الحال عنّي مُخْبـــــرِا**
**فأَدِرْ لِحَاظَكَ في محاسنِ وجْـــهه تَلْقَى جميعَ الحُسْنِ فيـــــه مُصَوَّرا**
**لـــــو أنّ كُلّ الحُسْنِ يكمُلُ صُورةً ورآهُ كان مُهَلِّلاً ومُـــــــــــكَبِّرا**

**الشرح**:

هذه قصيدة غزلية لابن الفارض الملقب بـ(سلطان العاشقين ) يخيل إلى قارئها أنها تخاطب إنسانا حقيقيا لا إلها خالقا، فمن يقرأها من أول مرة دون أن يطلع على حياة الشاعر وتفكيره ومذهبه الذي يعتنقه لظن أن ابن الفارض يتغزل في أحد محبوباته، ولكنه في هذه القصيدة يخاطب الله تعالى كأحد الأشخاص المقربين إلى قلبه طالبا منه التجلي إليه لرؤيته والتمتع بروعة حسنه وجماله، ففي هذه الأبيات يصور الشاعر الحب الإلهي وما يصحبه من حيرة ودهش وانبهار ونزوع إلى الموت .

في هذه الأبيات لم يكتف ابن الفارض بطلب الزيادة في الحب فقط، وإنما طلب من الله زيادة في الإفراط في هذا الحب، حين جمع بين هاتين

الكلمتين ( زدني بفرط ) والفرط يعني مجاوزة الحد، والإفراط في الحب لايسمى حبا، وإنما يرتفع ليصل إلى مرحلة العشق والوجد ثم الفناء عند الصوفيين، وكلمة (تحيرا ) ترمز إلى الفناء وهذا المعنى الذي استنبطته من كلمة (تحيرا ) فهي من حار الرجل يحار حَيْرَةً وحَيْرًا وحَيَرًا وحَيَرانًا نظر إلى الشيءِ فغُشِي عليهِ، فهنا الشاعر يطلب من الله أن يصل إلى مرحلة عالية من العشق إلى أن يشعر بتلك اللذة التي تغيبه عن الحياة وتفنيه من الوجود.

(وارحم حشى بلظى هواك تسعرا ): من معاني الرحمة: ترك عقوبة من يستحق العقوبة، وهذه من ضمن الكرامات التي يصل إليها الصوفي حينما يتوقف عن جميع العبادات بدعوى أنه وصل إلى مرحلة لا يعاقبه الله عليها، حتى وإن ترك الواجبات، وهذه المرحلة التي يسعى لتحقيقها ابن الفارض، حينما طلب من الله أن يعطف عليه ويرحمه ويكف عنه عذابه، نتيجة لما وصل إليه من الدرجات العليا في الحب الإلهي، وهذا ماعبر عنه بكلمة (هواك) و(فرط الحب) وما عبر عنه المعنى العام الذي يشير إليه الشطر الثاني من تسعر الحشى بلظى النيران إشارة إلى معاناة المحب والعاشق الإلهي، وهذا المعنى ستأكده الأبيات القادمة.

ويستمر ابن الفارض في سوء أدبه مع الله تعالى ويطلب منه رؤيته رؤية حقيقية واقعية في صورته كما هو عليها، وليته فطن أن هذا الأمر لم يتحقق للأنبياء والرسل من قبله فأنّى لابن الفارض ذلك! أما رأي الصوفيين في هذا البيت فمنهم من يعترض علي،هـ ويقول: إذا كان موسى عليه السلام قد منع الرؤية عندما طلبها، فكيف ترقت همة الشيخ رضي الله عنه إلى طلبها؟ فيجيب بعض الصوفيين: أن ابن الفارض يقصد رؤية الله في الآخرة بدليل التعبير بقوله و(إذا) فإنها تدل على الزمان المستقبل على أنه إذا كان ممكنا فيجوز الطلب لكل من يمكنه ذلك .

فابن الفارض يقصد بـ (إذا) المستقبل القريب، وهي الفترة التي ينتظرها بعد الخلوة حتى يحصل له الفناء والاتحاد مع الله كما يزعم، فلا أظن أبدا أنه يقصد الرؤية في الآخرة؛ لأن العبادات والخلوات التي يقوم بها في الدنيا هدفها حدوث هذه الرؤية التي يطمح إليها ابن الفارض، (سألتك): جاءت بمعنى الطلب والالتماس؛ لأنها تعدت إلى مفعولين بنفسها، ولو أنها تعدت بحرف الجر (عن) فستكون بمعنى الاستخبار، وهنا ابن الفارض يطلب من الله أن يتنزل عليه لرؤيته عيانا بيانا وهذا هو ظاهر الأبيات.

**ياقلب أنت وعدتني في حبهـم .. صبرا فحاذر أن تضيق وتضجـرا**

**إن الغرام هو الحياة فمت بـه ... صبا ، فحقك أن تموت ، وتعـذرا**

الشاعر في هذين البيتين يصور معاناة العشق الإلهي، وكيف أنه يحتاج إلى مصابرة ومكابدة حتى يصل إلى مايطمح إليه من الفناء وهو الغيبة عن صفات البشرية ليحمل سمات الألوهية بدلاً من سمات البشرية، الأمر الذي يجعل منه لذة تجري على المرء .

والموت الذي أشار إليه في البيت الثاني يرمز إلى (الفناء التام) أو مايسمى بالموت الاختياري، والإنسان لا يصل إلى هذه المرحلة إلى بمجاهدات شاقة ترمي إلى إماتة الحواس وتصفية النفس من جميع الشوائب، وهذا الموت يتم في هذه الحياة الدنيا والروح مازالت تحل في الجسد، فمن شدة الحب يغيب الصوفي عن الوعي حتى ينسى كل شيء، وينسى نفسه ولا ينظر إلا إلى محبوبه حتى يظن أنه اتحد بمحبوبه وامتزج به .

**قل للذين تقدموا قبلي، ومـن ... بعدي، ومن أضحى لأشجاني يرى**

**عني خذوا وبي اقتدوا ولي اسمعوا... وتحدثوا بصبـابتي بين الورى**

البيت الأول جامع لمن مضى ولمن يأتي ولمن هو موجود مع المتكلم في زمانه من أهل المحبة، فهو يخبر السالكين في هذا الطريق عن النتيجة التي وصل إليها في المعرفة بأن الوجود واحد فيقول لهم لن تصلوا إلى هذه

المعرفة إلا بالاستماع لي والاقتداء بسلوكي؛ لأنه كما هو معلوم أن ابن الفارض كان أحد العلماء، ثم تصوف فترك العلم وصار يهيم في جبل المقطم ينتظر أن يأتيه الفتح –وإن شئت قلت: الوحي– فهو يريد القول بأن هذه المعرفة التي سماها بالحياة هي نتاج الرياضة النفسية التي استعملها في الخلوات في الجبال لا طريق العلم؛ لأنه أمر بالاقتداء به لابالعلماء أو بالشريعة.

قدم الشاعر في الشطر الأول المجرورات(عني)، ( بي)، (لي) على الأفعال (خذوا)، (اقتدوا)، (اسمعوا) وفي هذا التقديم زيادة في الاهتمام بنفسه، وأنه اختص نفسه دون غيره بالأخذ عنه والاقتداء به والسماع له في كل ما يقوله ويفعله بغض النظر إن كان فعله صحيحا أو خاطئا، فهو يرى نفسه أنه وصل إلى مرحلة الولي الصالح المنزه عن المعاصي أو الأخطاء، ولو أنه قدم الفعل على الجار والمجرور لكان بالإمكان أن يؤخذ عنه وعن غيره، ولكن زيادة الأنا لديه وشعوره بتضخم الذات وتعاليها واقترابها من حبيبها وإحساسها بقرب التوحد به لجأ إلى تقديم الجار والمجرور المشتمل على ضمير المتكلم لتأكيد العلو والتفرد، بينما نلاحظ في الشطر الثاني أنه قدم الفعل (تحدثوا) على الجار والمجرور (بصبابتي) لأنه لا يريد أن يكتفوا بالحديث عن صبابته فقط، وإنما يطمح إلى الحديث عن صبابته وعشقه وعن كل أحواله وسكناته وهمساته وأفعاله وأقواله ، فيستمر في مسلسل الأنا المستعلية في تقديم الفعل (تحدثوا) لأن التحديث وسيلة إعلامية يريد منها انتشار خبره إلى أكبر مساحة ممكنة .

(الورى): وتعني الخلق "وقيل هو مأْخوذ من معنى الستر والإخفاءِ لأنهم يسترون وجه الأرض، ولهذا لا يُطلَق على من مضى أو سوف يأْتي من الخلق بل على من حضر فقط"، اختيار منطقي من ابن الفارض لكلمة (الورى) لأنه من المستحيل أن يتحدث عنه من مات من الناس أو من لم

يأت إلى هذه الحياة، فالذي سيتحدث عن ابن الفارض هو من حضر فقط ورأى صبابته وتعلقه بالله ليكون وسيلة فيما بعد للحديث عنه إلى الأجيال القادمة، والورى مناسبة لكلمة (تحدثوا)؛ لأنه طلب من الناس الحاضرين الحديث والإعلان عنه حتى يضمن لنفسه الاستمرار والخلود، فتحدث الورى عنه في ذلك الزمان يضمن له بقاء ذكراه خالدا للأجيال اللاحقة، فإن لم يتحدث عنه الورى فلن يضمن لنفسه الخلود، ولماتت ذكراه في الأجيال القادمة.

الآن يتبادر في أذهاننا هذا السؤال! من أنت يا ابن الفارض حتى عنك نأخذ وبك نقتدي ولك نسمع وعنك نتحدث؟ وكيف وصلت إلى هذه المرحلة العظيمة من الثقة العمياء؟ يجيبنا ابن الفارض في البيت التالي:

**ولقد خلوت مع الحبيب وبيننـا ... سر أرق من النسـيم إذا سرى**

هنا ابن الفارض يجيبنا على تساؤلنا السابق، ويخبرنا أن السبب الذي أهلّه لأن نأخذ ونسمع عنه هو أنه وصل إلى درجة كبيرة، وهي الخلوة مع الحبيب ويقصد به الله عزوجل، فالخلوة عند الصوفية: "انقطاع عن البشر لفترة محدودة، وترك للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة، كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع، ثم ذكرٌ لله تعالى بقلب حاضر خاشع، وتفكرٌ في آلائه تعالى آناء الليل وأطراف النهار، وذلك بإرشاد شيخ عارف بالله، يُعلِّمه إذا جهل، ويذكِّره إذا غفل، وينشطه إذا فتر، ويساعده على دفع الوساوس وهواجس النفس"، وغرض الخلوة عند الصوفي هو الوصول إلى مرحلة جديدة تسمى الجلوة وتعني خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية، إذ عين العبد وأعضاؤه ممحوة عن الأنانية، والأعضاء مضافة إلى الحق بلا عبد، يعني هنا في حال الجمع عندما يرى الوجود واحد أي أن الخالق والمخلوق شيء واحد.

(ولقد خلوت): يؤكد ابن الفارض خلوته مع الحبيب؛ ولذلك لأن حرف (قد) إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التأكيد.

سر أرق من النسيم ) نلاحظ هنا أسلوب آخر من أساليب المبالغة التي يمتاز بها ابن الفارض، فهو يصف السر بأنه أرق من النسيم، والنسيم في الأصل ريح رقيقة لينة لا تحرك شجرا، فوصف السر بأنه أرق من الرقيق، وصف الشاعر السر بأنه أرق من النسيم ويشير بذلك إلى أن ليست كل خلوة من الممكن أن توصل إلى المرتبة التي هو يعنيها، فالسر الذي بينه وبين الله خفي لطيف لا يشعر به إلا من وصل إلى مستوى رفيع من الصوفيين .

**وأباح طرفي نظرة أملتهـا .... فغدوت معروفا وكنت منـكرا**

يصف لنا ابن الفارض ماحدث معه في هذه الخلوة التي ذكرها في البيت السابق، وكيف أن محبوبه أطلق ( نظرة ) أي لمحة، نحو (طرفه) أي طرف العين ليؤكد لنا ما أكده في البيت السابق أن هذه اللمحة الخاطفة والسريعة لا يدركها إلا من وصل إلى منزلة عالية بسبب الذكر وشدة العبادة .

(فغدوت معروفا وكنت منكرا ) يلمح ابن الفارض في هذا الشطر كيف أثرت فيه هذه الخلوة والانعزال عن الناس من أجل العبادة، وكيف أنها كانت سببا في شهرته بالرغم من انعزاله.

**فدهشت بين جماله وجلالـه .... وغدا لسان الحال عني مخبـرا**

ويستمر ابن الفارض في سرد الوقائع التي حدثت له نتيجة خلوته مع ربه، إذ أنه أصيب بالدهشة وهي ذهاب العقل من الذهول والوله وهذا المقام الذي يسعى إليه المريد في سلم صعوده إلى المقامات الرفيعة حتى يتلقى عن ربه مباشرة.

**فأدر لحاظك في محاسن وجهـه ... تلقى جميع الحسن فيه مصـورا**
**لو أن كل الحسن يكمل صـورة ... ورآه كان مهللا ومكبـــرا**

قوله (أدر لحاظك ): أي كرر ملاحظتك ومراقبتك في وجه ذلك المحبوب حتى تتمكن من مشاهدة حسنه وجماله؛ لأنه ليس كل من أدار لحاظه يرى وجه الحق مالم يره الحق تعالى وجهه بمحض فضله وإحسانه، وهذا يعيدنا إلى البيت السابق حين قال: (عني خذوا وبي اقتدوا ولي اسمعوا...) فلن يصل السالك أو المريد إلى هذه الرؤية الجلية التي يقصدها ابن الفارض إلا إذا سلك المريد مسلكه، ثم يصف لنا جمال الإلـه فيقول: لو اجتمع كل الجمال الموجود في هذا الكون ليصبح صورة واحدة من الجمال، ثم رأى حسن الله وجماله لهلل وكبر من شدة جمال الله، وهذا يعيدنا إلى الأبيات السابقة حين قال: (فدهشت بين جماله وجلاله ) لنرى التناسب بين هذين البيتين وبين البيت السابق؛ لأن الدهشة والانبهار بجمال الشيء يجعلنا نكبر ونهلل من عظمة مانرى، وفي البيتين الأخيرين نلاحظ التكرار بين (الحسن، محاسن ) وهذا التكرار أفاد التوكيد والإيقاع والتوازن في بناء العبارة.

**********

# ثانياً: النثر وكُتَّابه

## (٥-٢) النثر الفني

**مميزاته: كتابة الترسل والإنشاء**

لما كان هذا النوع من النثر من الرسائل والمقامات والأخبار والقصص والسِّيَر مثارًا للخيال ومظهرًا لحركات الوجدان والشعور وإظهار التفوق في براعة القول والحذق في الصناعة اللفظية، اصطبغ العصر وما بعده من العصور بصبغة يغلب فيها تفضيل جانب اللفظ على جانب المعنى، فالتزم فيها السجع القصير الفقرات غالبًا، واستُعملت الأساليب الشعرية في الشرح والاستدلال بالإكثار من الأخيلة والتشبيهات والاستعارات البديعة، وقلَّت المعاني المخترعة، فاضطر الكاتب إلى حل كثير من أبيات الشعر ذوات المعاني الجميلة، وإلى الاقتباس من القرآن والحديث، حتى سمَّى الأدباء هذا النوع من الشعر: المنثور.

وأول من أشاع هذه الطريقة ابن العميد وزير آل بويه، وقلَّده كثير ممن عاصروه وجاءوا بعده، وأعظم نموذج لها مقامات الحريري، كان ابن العميد رأس كتَّاب الشرق، ومع أنه إمام طريقة الشعر المنثور، لم تنحطَّ كتابته في البلاغة كما انحطت كتابة تابعيه في طريقته من المتأخرين، حتى قيل: بُدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد، وتخرَّج على يده الصاحب بن عباد الذي أُولع بالسجع والجناس. ومن أئمة هذه الطريقة بديع الزمان، وأبو بكر الخوارزمي، والصابئ، والحريري، وظلت هذه القيود في الأدب حتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، كانوا يقلدون المقامات والرسائل، حتى جاء أحمد فارس الشدياق وثار عليها في كتابه الفارياق.

**١-ابن العميد:**

هو الأستاذ الرئيس الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين العميد، كاتب الشرق وعماد ملك آل بويه ورئيس وزرائهم، فارسي الأصل من أهل مدينة قم. كان أبوه كاتبًا بليغًا من كبار كتَّاب الدولة السامانية، فنشأ ابنه مولعًا بالعلوم العقلية واللسانية، فبرع في علم الحكمة والنجوم، ونبغ في الأدب والكتابة، رحل عن أبيه إلى آل بويه، وتقلَّد الأعمال الكثيرة في دولتهم حتى تولى وزارة ركن الدولة –أبو عضد الدولة الشهير– فساس الملك أحسن سياسة، وقلَّد البرامكة ففتح بابه للشعراء والعلماء والفلاسفة، يشاركهم في كل علم إلا الفقه، وظل كذلك حتى مات سنة ٣٦٠.

**شخصيته:** كان ذا منزلة عالية لعلمه ومقامه السياسي، حتى أُطلق عليه اسم الجاحظ الثاني. ومَن طالع قصائد المتنبي في مدحه يرى أن المتنبي لم يتواضع لأحد تواضعه له.

**أسلوبه:** من الإنشاء الكثير التنميق، فهو أول من فتح باب الولوع بالرسائل البديعية، متوخيًا فيها السجع القصير الفقرات، مقتبسًا الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة، مشيرًا إلى الحوادث التاريخية المشهورة، ناثرًا الأبيات الحكمية مؤثرًا الحلية البديعية، كالجناس والمطابقة، مضمنًا الأمثال السائرة. وقد حاكاه فحول عصره وأخذوا عنه وقلدوه، إلا أنه أقلَّ سجعًا منهم وأقرب إلى الطبع.

**شعره:** له شعر رائق، إلا أن صبغة النثر والعلم تظهران فيه.

**مرضه:** كان قليل الحظ من العافية، مصابًا بالقولنج والنقرس وتشنج الأعضاء، سأل الصاحب بعد أن عاد من بغداد قائلًا: كيف رأيت بغداد؟ فأجابه: بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد.

**آثاره:** له مجموع رسائل في الفلسفة والنصح والعتاب.

**ملاحظة:** كان ابن العميد مولعًا باستعمال حروف الجر، وإليك المثل: كتابي إليك وأنا مترجع بين طمع فيك ويأس منك، وإقبال عليك وإعراض عنك. إلى

أن يقول: ولا جرم أن وقفت بين ميل إليك وميل عليك، أقدِّم رجلًا لصدمك وأخرى عن قصدك، وأبسط يدًا لاصطدامك واجتياحك. ومنها: كيف وجدت ما زلت منه، وكيف تجد ما صرت إليه.

**٢-الصاحب بن عباد:**

**نشأته:** هو كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد وزير آل بويه، وكاتبهم، وُلد سنة ٣٢٦ بطالقان من قزوين، كان أبوه كاتبًا من خيرة كتَّاب آل بويه، تعلَّم العلم والأدب من أبيه، ثم اتصل بابن العميد فلزم صحبته وتولى كتابة خاصته، ثم وزر لمؤيد الدولة من آل بويه، ثم لأخيه فخر الدولة، حتى أصبح له في ملكهما اليد النافذة المطلقة، وظل كذلك حتى مات سنة ٣٨٥.

**صفاته:** كريم الأخلاق، سليم الذوق، أريحي جواد يحب العلم والعلماء، مولع بجمع الكتب القيمة النفيسة. كان مجلسه حلبة علم وأدب، يساجل فيها العلماء والشعراء، سيَّال القريحة، سريع العارض، حاد النكتة، كان أكثر كرمًا من ابن العميد، نقَّادة صادق النظر في الشعر والنثر، تعقَّب شعر المتنبي وأكثر من نقده.

**أسلوبه:** هو أسلوب ابن العميد، ولم يسمَّ بالصاحب إلا لأنه صحب ابن العميد وأخذ عنه، إلا أنه أُولع بالجناس والسجع جدًّا حتى قيل فيه: إنه لا يترك سجعة ولو انحلت باستعمالها عروة الملك! يعد ثاني ابن العميد بين الكتَّاب.

**شعره:** له شعر رائق، متأثر بالنثر أيضًا كابن العميد، إلا أنه أقرب إلى الشاعرية من أستاذه، فهو يتعمد المعاني العلمية والشرعية والفلسفية وغيرها من المعاني تزيينًا لشعره، ولا أرى حملته على المتنبي إلا حسدًا وتشفيًا؛ لأنه لم يجبه على مراسلته له كما سبق.

**آثاره:** المحيط في اللغة «سبع مجلدات» مجموعة رسائل، كتاب الوزراء، الكشف عن مساوئ شعر المتنبي. وله توقيعات بديعة جدًّا، ونكات لطيفة فيها التلاعب بالألفاظ الذي كان مولعًا به.

## المقامات:

معناها اللغوي محل الإقامة، وهي قصة قصيرة يرويها واحد دائمًا، كما أن بطلها واحد، وهذا البطل شحاذ كثير الحيل، تارة يتعامى، وطورًا يلبس جبة الواعظ وحُلَّة العالم. والعقدة فيها من طراز واحد؛ أي إن الرَّاوية يعرف أن البطل محتال كذاب فيما يدعي، ومبدع المقامة هو بديع الزمان الهمذاني، والذين جاءوا بعده له تبع، ولم يجارِهِ إلا الحريري، وهو أصح لغة من البديع، أما الغاية من المقامة فهي إظهار البراعة في الإنشاء أو جمع الألفاظ اللغوية لا القصة، ولكن بديع الزمان وفِّق في بعض مقاماته فجاءت كأقاصيص اليوم، أما المغزى فيفيدنا كيف كانت الكدية والتكالب على جمع المال، وقد كثر المحتالون في ذلك العصر فصوَّرهم البديع متأثرًا بالجاحظ، والذي يعجبني من بديع الزمان خَلْقُه في ذلك الزمان بطلًا سمَّاه بشر بن عوانة، فظل العلماء والأدباء يعتبرونه شخصًا حقيقيًّا، وعدوا قصيدته التي أولها: أفاطم لو شهدت ببطن خبت، من روائع الشعر، وهذا ما أطلقتُ عليه اسم طلسم الشهيرة، وبقي السر مغطى بقشرة بصلة — كما يقول مثلنا — حتى قام الأستاذ بطرس البستاني ففتش عن آثار أقدام ابن عوانة عبر مجاهل تاريخ الأدب العربي، فلم يظفر بشيء، فبيَّن للناس أن ابن الأثير وقع في الفخ حين قابل بين ابن عوانة والبحتري والمتنبي، ففضَّل ابن عوانة على البحتري؛ لأنه اعتقد أنه السابق إلى صوره ومعانيه في وصف القتال مع الأسد، ولقد مر على ابن عوانة ألف سنة وهو ينعم بجلال التاريخ إلى أن

هُتك ستره، فبلغ بذلك بديع الزمان قمة الفن حين كذب على الشعراء والمؤرخين، وجازت عليهم كذبته عشرة قرون.

**١-بديع الزمان الهمزاني**

**حياته:** أبو الفضل أحمد بن حسين. نشأ بهمذان، ودرس العربية والأدب ونبغ فيهما، ثم ضرب في الأرض يتكسب بأدبه. أقام بنيسابور مدة أملى بها ٤٠٠ مقامة بلفظ رشيق وسجع رقيق، طبع على غرارها الحريري، حينما جادل الخوارزمي وتغلب عليه، فاشتهر وخلا له الجو بموت الخوارزمي، فوفد على الملوك والأمراء، حتى صاهر أعيان هراة التي استوطنها، فحسنت حاله، إلا أنه مات في الأربعين من عمره سنة ٣٩٨.

**المقامة:** أطلقت المقامة في ذلك العصر على قصة خيالية أنشئت بعبارة مسجوعة غالبًا، محلَّاة بأنواع البيان والبديع، مشتملة على كثير من الغريب.

بدأ بهذا النوع من الأدب بديع الزمان، وحذا حذوه الحريري وغيره، ولا عيب في هذه القصص الصغيرة، إلا أنها ترمي غالبًا إلى الاحتيال وطلب الرزق عن طريق النصب، هي مفيدة بأسلوبها وحفظها ألفاظًا كثيرة، إلا أنها غير شريفة المبادئ، لا تعلم عزة النفس.

**شخصيته:** كان بديع الزمان حاد الذكاء قوي الذاكرة، كاتبًا مترسلًا مجيدًا، وشاعرًا مبدعًا، سريع البديهة، مرَّ الهجاء.

**أسلوبه:** ليِّن العبارة سهلها، قصير السجع. كل هذا يدل على أنه غير متعمل في الصنعة، وأنه غزير المادة.

**آثاره:** المقامات، التي لم يصل إلينا منها إلا ٥٣ مقامة، ديوان رسائل ومقالات ومناظرات، وديوان شعر، وقد كان كصاحبيه، ابن العميد والصاحب، مولعًا بالجناس والطباق وغيرهما من أنواع البديع، وقد زاد عليهما المقامات التي أبدعها وتفوَّق فيها، فلم يبلغ أحد بعده ما بلغ، وراجت المقامات رواجًا عظيمًا حتى نسج على منوالها كثير من الأدباء، وظلت

متبعة حتى آخر القرن التاسع عشر، فتحولت مع ناصيف اليازجي إلى صناعة لفظية؛ إذ كان يتبع آثار الحريري لا البديع والبهلوانيات. وإلى ركاكة وسجع بارد مع نقولا الترك وغيره، حتى كان بعض الأدباء المقلدين يتراسلون بشكل مقامات.

## القصص:

لم يهتم العرب لهذا النوع في بدء نهضتهم. ترجموا كل شيء إلا القصص، فلم يترجموا لا الإلياذة ولا غيرها من قصص اليونان والرومان. وأول كتاب قصصي رأيناه في الأدب العربي هو كليلة ودمنة وغيره من الكتب المترجمة عن الفارسية والهندية، أما القصص التي نراها بين أيدينا اليوم فهي من تأليف هذا العصر، منها ما هو مترجم ومنها ما هو من وضع العرب، وقد كانت القصص في أول عهدها كأخبار تُروى عن أيام العرب وحوادثهم تشجيعًا للجنود وتحميسًا لهم، إلى أن صارت تنمو بتناقل الرواة، ثم نَمَت وكبرت وجُمعت ولم يذكر اسم واضعيها، كما جرى في أكثر القصص عند الإفرنج. أما القصص الناضجة فلم يصل إلينا منها إلا قصة عنترة المشهورة.

**قصة عنترة:** هي أكبر القصص العربية المملوءة بالحماسة وأخبار الحروب. تمثِّل أخلاق العرب في جاهليتهم وحروبهم وعاداتهم، ومعظم أسماء أبطالها حقيقية، إنما فيها مبالغة ككل رواية من نوعها، وقد وضعت في آخر هذا العصر، ألَّفها يوسف بن إسماعيل في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي، حدثت ريبة في بيت هذا الخليفة فأصبحت حديث الناس في مجالسهم، فأشار على المؤلف بوضع هذه القصة ليشغل الناس بها عنه، وهكذا كان، ومن المعقول أنها لم توضع كما هي اليوم، إنما أخذت تضخم تدريجيًّا، ككل الأخبار من هذا النوع، وهي أحسن القصص العربية مغزى؛ فهي ترمي إلى

الإباء والعفة والسمو، بخلاف كتاب ألف ليلة وليلة، وقصص اليوم التي تعلِّم الفساد الأخلاقي.

**قصص أُخَر:** وقد وضع العرب قصصًا أُخَر، منها قصة البراق، وقصة بكر وتغلب، وقصة شيبان وكسرى أنوشروان، ووضعوا أيضًا قصصًا غرامية، بعضها ضاع وبعضها أدخلوه في كتاب ألف ليلة وليلة.

**ألف ليلة وليلة:** هي مجموعة قصص متسلسلة، ينبثق بعضها من بعض كأساطير كليلة ودمنة، اختلف الناس في تاريخها: فمن قائل إنها معرَّبة، ومن قائل إنها مترجمة، وهي على ما نظن ككتاب كليلة ودمنة، مترجمة في الأصل وقد زاد عليها العرب أشياء كثيرة من حوادثهم وأخبارهم.

**موضوعها:** تمثِّل الآداب الاجتماعية في القرون الإسلامية، وهي تمثل ما قرأناه وكتبناه في هذا الدرس عن حياة العرب في هذه العصور، وانغماسهم في اللهو والترف، وفيها أيضًا أخبار جن وعفاريت، وقصص غريبة عجيبة تصوَّرها العقل البشري في ذلك الزمان، وقد تحقق بعضها اليوم. وليست الخرافات بضاعة جديدة عند العرب في كتابهم هذا، بل هي مألوفة في ذلك العصر وفي كل عصر.

## النحو واللغة:

كثر النحاة في هذا العصر، ولكنهم لم يأتونا بشيء جديد، فلم يؤلِّفوا من عند أنفسهم، بل كانت كل أعمالهم في الشرح والتعليق والإعراب. أشهرهم:

**ابن خالويه:** همذاني الأصل، جاء بغداد ثم رحل إلى الشام واتصل بسيف الدولة فقدَّمه، وله محاضرات ومناقشات، وكان من أعداء أبي الطيب المتنبي، وله رسالة في إعراب ثلاثين سورة، وكتاب الشجر، وأشهر كتبه

كتاب ليس في كلام العرب، موضوعه الشواذ العربية، طبع في مصر، وقد تقرأ له شعرًا أشبه بشعر الصاحب المتكلف، كله صنعة وطباق.

**الزبيدي:** من علماء النحو في الأندلس، واسمه أبو بكر محمد من إشبيلية. تولى القضاء وكان شاعرًا. له كتاب طبقات اللغويين في المشرق والأندلس، وكتاب الواضح في النحو، وكتاب الاستدراك على سيبويه.

**ابن جني:** موصلي الأصل، قرأ على أبي علي الفارسي. أشهر نحاة هذا العصر، وله شعر جيد، إنما غلب عليه النحو، وله فلسفة ونقد، أما أشهر كتبه فهي: الخصائص في اللغة، يبحث في أصول النحو، واشتقاق اللغة. سر الصناعة في النحو، يبحث في الحروف ومخارجها والحركات وما يناسب تقاربه منها في اللفظ.

**اللغة:** نضجت في هذا العصر علوم اللغة ونشأت المعاجم اللغوية، فدونوها على حروف المعجم أو على المعاني، وأشهر هؤلاء:

**القالي:** أبو علي، من بغداد، من حفَّاظ اللغة والشعر ونحو البصريين، تنقَّل بين بغداد والموصل، ونُفي في قرطبة. من آثاره كتاب الأمالي، وهو ككتاب المبرد، وله كتاب النوادر.

## المعاجم اللغوية:

وضع نواتها الخليل في كتاب العين، إلا أنها لم تتم إلا في هذا العصر. أما مصادرها فما نقل عن الرواة المتقدمين كحماد والأصمعي وأبي عبيدة. دوِّنت أولًا في كتب مستقلة كل موضوع على حدة، ككتب الإبل وأسماء الوحوش، والخيل والشاء، والنبات والشجر...إلخ، وكذلك كتب النوادر؛ أي ما ندر استعماله في اللغة، ككتب الكسائي والشيباني والقالي...إلخ، وكتب الغريب في اللغة وشروح الشعر، وكل ما كتب في اللغة واشتقاقها، من أضداد وأشباه ونظائر، فهذه المؤلفات وأمثالها كانت مصدرًا لأصحاب

المعاجم، بيد أن مؤلفي المعاجم لم يعتمدوا عليها وحدها، بل رجعوا أيضًا إلى التحقيق من ألسنة العرب.

**أقدم المعاجم:** كتاب العين للخليل، مرتب على الحروف الأبجدية، ثم جمهرة ابن دريد، ثم البارع للقالي، ثم كتاب التهذيب للأزهري، وهو ابن الأزهر من هراة، رتَّبه على مخارج الحروف ككتاب العين، ثم كتاب المحيط للصاحب بن عباد، مرتب على الحروف الأبجدية كما هي اليوم، أكثرَ فيه الألفاظ وقلَّل الشواهد. والمجمل لابن فارس، اقتصر فيه على الألفاظ الهامة المستعملة معتمدًا على السماع، ومن كتبه المتداولة، كتاب الصاحبي ألَّفه للصاحب بن عباد، موضوعه فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، بحث فيه في أصل اللغة وخصائصها واختلاف لغاتها بحسب القبائل.

**الصحاح للجوهري:** أصله من فاراب ببلاد الترك، كان هذا عالمًا كبيرًا في اللغة، سافر إلى الجزيرة وغيرها وخالط ربيعة ومضر، فأتقن اللغة وعاد يعلِّم ويؤلِّف في نيسابور، وهناك ألَّف كتابه الصحاح فأسماه تاج اللغة وصحاح العربية، رتَّبه على حروف الهجاء، مرتبًا الكلمات على آخر حرف منها.

**ابن سيده:** أندلسي من مرسية. كان ضريرًا وأبوه ضرير، وهو من علماء اللغة، فأخذ عنه كتابه المحكم رتَّبه على ترتيب كتاب العين، وهو محكم الضبط دقيق، عوَّل عليه صاحب القاموس في تأليف كتابه. وله المخصص أيضًا وهو كتاب مرتَّب المواد حسب المعاني.

**الفهرست:** أول من كتب في هذا العلم ابن النديم الورَّاق البغدادي، ولولا هذا الكتاب لضاع كثير من آداب العرب، أما كتابه الموسوم بالفهرست، فهو يتضمن وصف لغات الأمم من عرب وعجم وخطوط وصور أمثلة منها، ثم كتب الشرائع المنزلة، ثم العلوم، فذكر النحاة واللغويين وتاريخهم وأسماء كتبهم وأصحاب الأخبار والسيَر والشعر والشعراء والكلام والمتكلمين والفقهاء

والحديث والمحدثين والفلسفة والعلوم القديمة والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة والمذاهب والمعتقدات والكيمياء وأصحابها، وفي كل باب تفاصيل في سيرة كل مؤلف وأسماء كتبه، وهذا الكتاب نفيس جدًّا، بل هو مرجع لكل أديب.

## العلوم الطبيعية

نبغ في هذا العصر علماء لا يُشقُّ لهم غبار، وقد أقبل الناس على الطب كثيرًا حتى قيل: إن الذين امتُحنوا لنيل الإذن بالتطبيب في عهد المقتدر بالله أول القرن الرابع، بلغ عددهم ٨١٠، وبلغ عدد أطباء النصارى في خدمة المتوكل ٥٦ طبيبًا، وكان يجلس مع سيف الدولة على المائدة ٢٤ طبيبًا، وكان أطباء للخلفاء وأطباء للجيش. وكان الامتحان يجري على الأطباء والصيادلة بالتدقيق، واشهر أطباء هذا العصر ابن سينا.

**ابن سينا:** الشيخ الرئيس الفيلسوف الطبيب، أرسطو العرب وأبقراطهم. اسمه أبو علي الحسين بن عبد الله، أبوه من بلخ، سكن مملكة بخارى. نشأ ابن سينا في بخارى، حفظ القرآن وتعلم الفقه، وما بلغ السادسة حتى تعلم المنطق والهندسة والطبيعة والطب والفلسفة، وألَّف في الحادية والعشرين من عمره، وتقلَّد بعض مناصب دولة بني سامان. كان قوي القوى عقلًا وجسدًا، ولكنه كان شهوانيًّا. مات في همذان في الثامنة والخمسين من عمره.

**تأثيره:** ألَّف في كل فن من العلم والأدب، وكان لمؤلفاته تأثير كبير في نهضة أوروبا الأخيرة؛ لأنهم نقلوا أهم كتبه إلى اللاتينية، لغة العلم.

**تآليفه:** القانون، ١٤ جزءًا في الطب والعقاقير والتشريح، الشفاء ١٨ جزءًا. من كتبه الفلسفية: الإشارات والنجاة، وله في التوحيد كتاب المبدأ والمعاد، الإلهيات، القصيدة العينية التي مطلعها: هبطت إليك من المحل الأرفع.

**الصيدلية والكيمياء والنبات:**

تحقَّق الفرنج أن العرب هم أول من اشتغل في استحضار الأدوية والعقاقير، واستنبطوا كثيرًا منها. فأول أقرابذين ألَّفه سابور بن سهل سنة ٢٥٥، ثم أقرابذين ابن التلميذ سنة ٥٦٠، وتبع تقدمهم في الصيدلة تقدمهم في الكيمياء وعلم النبات. وهم مؤسسو الكيمياء الحديثة بتجاربهم واستحضاراتهم. راجع ما كتبناه عن جابر بن حيان والكندي والرازي، ويرجح أنهم هم أول من ركَّب البارود. وأشار ابن الأثير إلى أن العرب استعملوا مادة في واقعة سنة ٢٦٩ طلوا بها الخشب فامتنع احتراقه؛ ويعقوب أول من ألَّف في إبطال الكيمياء القديمة. أما علم النبات فلهم فيه السبق، أخذوا هذا العلم عن جالينوس وديسقوريدوس وعن الهنود، نقلت هذه الكتب في أيام المتوكل، ترجمها أسطفان بن باسيل من اليونانية، ولما نبغ ابن البيطار، سافر إلى بلاد اليونان وبلاد الروم وشاهد كل نبات في مواضعه، وكذلك في بلاد المغرب، ودرس نبات الشام، ثم ذهب إلى الديار المصرية، وجعله الملك الكامل الأيوبي رئيسًا على العشَّابين، وقد ألف كتبًا في النبات اعتمد عليها الأوروبيون في نهضتهم الأخيرة، وله كتاب المغني في الأدوية المفردة، وكتاب جامع مفردات الأدوية والأغذية، وكتاب ميزان الطبيب.

**الصوري:** ومن أئمة علماء النبات رشيد بن منصور الصوري. هذا العالم هو صاحب كتاب الأدوية المفردة. درس نبات الشام في سوريا ولبنان، وصوَّره بالألوان كما يفعل علماء اليوم.

## الفلسفة:

اشتغل بالفلسفة من اهتموا بعلوم القدماء، وخصوصًا الأطباء وفي طليعتهم ابن سينا، وكان الفلاسفة متهمين في دينهم، حتى أصبح اسم الفيلسوف مرادفًا لاسم كافر. ونقم العرب على المأمون؛ لأنه سعى بنقل الفلسفة إلى لغة العرب، فتستَّر أصحابها وألَّفوا الجمعيات السرية، وأشهرها

جمعية إخوان الصفا التي تألفت في بغداد في أواسط القرن الرابع، واشتغل أعضاء هذه الجمعية في الفلسفة حتى صار لهم فيها مذهب خاص مستنتج من فلسفة اليونان والفرس والهند، معدل على ما يقتضيه الإسلام، وأساس مذهبهم أن الشريعة تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، وأنه لا يغسلها إلا الفلسفة، وأنه إذا امتزجت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية حصل الكمال.

**رسائلهم:** تُعرف برسائل إخوان الصفا، عددها ٥٠ رسالة، تنظر في مبادئ الكائنات وأصولها وماهية الأرض والسماء ووجه الأرض وتغيراته، والكون والفساد والآثار العلوية، وتكوين المعادن وعلم النبات وأوصاف الحيوانات، ومسقط النطفة وارتباط الناس بها، وتركيب الجسد والحاس والمحسوس، والعقل والمعقول، والصنائع العلمية والعملية، والعدد وخواصه، والهندسة والموسيقى، والمنطق وفروعه، واختلاف الأخلاق، وأن الإنسان عالم صغير، والعالم إنسان كبير، وماهية العشق، والبعث والنشور، وأجناس الحركات والعلل والمعلولات، والحدود والرسوم. وبكلمة، لقد ضمَّنوا هذه الرسائل كل علم طبيعي ورياضي وفلسفي وإلهي وعقلي، وفيها بحث من قبيل النشوء والارتقاء، تناقلها العلماء؛ وخصوصًا المعتزليين منهم، ونُقلت على يد الحكم بن عبد الرحمن الكرماني، وهو قرطبي زار المشرق على عادة الأندلسيين للتبحر في العلوم، فانتشرت هناك ودرسوها وتدبروها.

## النجوم:

قال العرب: إن صناعة التنجيم خرافة، ومالوا إلى الحقائق العلمية فعنوا بعلمها، فرصدوا الأفلاك وألَّفوا الأزياج التي قاسوا بها العروض، وراقبوا السيارات. وأشهرهم في هذا العصر:

**البيروني:** أبو الريحان، نسبة إلى بيرون بلد في السند، اطَّلع على علوم الهنود واشتغل في النجوم والرياضيات والتاريخ، وأشهر كتبه الآثار الباقية في القرون الخالية، التفهيم لصناعة التنجيم، رسالة في الأسطرلاب، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر.

## الرياضيات:

كان للعرب شأن كبير في الجبر والهندسة والحساب، ومما أحدثه العرب في الهندسة أنهم طبقوها على المنطق، وقد فعل ذلك ابن الهيثم المصري في فجر القرن الخامس، وأدخل هذا في الجبر قواعد جديدة، وأساليب في استخراج المسائل الحسابية، واشتغل العرب في أعوص المسائل الهندسية؛ كقسمة الدائرة إلى سبعة أقسام، واخترع عباس بن فرناس الآلة المعروفة بالمثقال، يعرف بها الأوقات على غير رسم ومثال. حاول هذا المفكر أن يطير فنسي الذَّنَب فسقط على أزمكه، أما الموسيقى، فبرعوا فيها وإن لم يؤلفوا فيها، واخترعوا آلات موسيقية، وحسَّنوا أخرى. وفي كتاب الأغاني قواعد كثيرة لهذا الفن مبعثرة هنا وهناك.

## التاريخ

تطور التاريخ في هذا العصر، فألِّفت التواريخ الخاصة للمدن والأمم والأشخاص، وسبب هذا، التجزؤ الذي حصل في الدولة، أما تواريخ الأشخاص فكان بإيعاز منهم، وتولَّد نوع جديد من التاريخ سموه علم الأوائل، بحثوا فيه أوائل الوقائع والحوادث بحسب الموطن، وأول من ألَّف به أبو هلال العسكري، أما التاريخ العام، فاصطبغ بصبغة الرحلات، مع وصف الأماكن الجغرافية، وأكثر من أفاض في هذا، المسعودي، وهو من أهل الأسفار، أما النقد التاريخي فلم يكن في هذا العصر؛ لأن التواريخ كُتبت تحت سيطرة الملوك والأعيان.

**المسعودي:**

**حياته:** هو علي بن الحسين المسعودي، نسبة إلى عبد الله بن مسعود الصحابي، وقد وُلد ببغداد وبها نشأ، ولما شبَّ وأربت سنه على العشرين، استهوته الأسفار، فضرب في البلاد شرقًا وغربًا، وكانت رحلته لا تقل عن رحلات المختصين في هذا العصر. وقد سهَّل ذلك اتساع رقعة المملكة الإسلامية، فأخذ يجمع أخبار الأمم والشعوب، وتعرَّف على أحوال بلاد فارس والهند وسيلان ومدغسكر. وما عاد إلى بلاده عن طريق عمان، حتى استأنف سفره إلى شواطئ بحر قزوين وبلاد الروم وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر والسودان، وانقطع في آخر مطافه إلى التنقل بين مصر والشام، ولزم التأليف وأخذ يدوِّن ما رأى وسمع، وهو لو محَّص ولم يقبل كل حكاية ورواية، لكان واحد عصره.

**شخصيته:** حلو المحضر، لطيف المعاشرة، كثير النكات، يحب الفكاهة، وقد عرف من الأخبار ما لم تضمه صدور الكتب.

**تآليفه:** أشهرها مروج الذهب، وهو يحتوي على أخبار الأمم التي عرفت في عصره قديمها وحديثها. وفي كلامه عن دولة العرب روى الوقائع وغرائب الأحاديث، فمثل أحوال المدنية الإسلامية وحياة أهلها بنوع جلي واضح تلذ مطالعته ويجذب قارئه. وله كتاب كبير في الرحلات سماه أخبار الزمان، ثم اختصره وسمي المختصر الكتاب الأوسط، ثم أراد إجمال ما بسطه، فوضع مروج الذهب، وهو الذي بقي. ويقال إن له كتبًا أخرى قد فقدت.

**أسلوبه:** عبارته قوية واضحة جلية، فيها جمال أدبي، وليست بغريبة عن الفن، ولا تخلو من النقد والتدقيق، وله آراء خاصة، وإن لم تخلُ من خرافات وأوهام كأكثر ما كتب في التاريخ والجغرافيا وأساطير الأولين، وأراد أن يفكه، فضلَّ في تحقيقه التاريخي والجغرافي والأدبي، فكان غير الجاحظ الذي وضع

كل شيء على محك العقل، وله أيضًا كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وهو تاريخ أكبر من مروج الذهب مفقود، وهناك مؤرخون عديدون كحمزة الأصفهاني ومسكويه والمرعشي وصاعد الأندلسي.

## الجغرافية

بنى علماء الجغرافية علمهم في هذا العصر على الرحلات؛ لأن هذا العلم لم ينضج، ومع ذلك وصفوا أماكن لم يصفها أحد قبلهم؛ لأنهم عرفوا أصقاعًا عديدة لم يعرفها أحد، وقد رسم العرب خرائط عدة، بدءوا بذلك في صدر الدولة العباسية. وأول من رسم الخرائط محمد بن موسى الخوارزمي في زمن المأمون، فعيَّن مواقع المدن والبحور بالدرجات الجغرافية المبنية على علم الفلك، أما الذين كتبوا في الجغرافية وألفوا فيها فهم: أبو زيد البلخي صاحب كتاب صور الأقاليم، والأصطخري صاحب كتاب الأقاليم، وابن حوقل صاحب كتاب المسالك والممالك، والمقدسي صاحب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وهو أفضل الجغرافيات العامة في ذلك العصر.

## الأدب:

نضج العقل العربي في هذا العصر، فبحثوا في كل فن ومطلب وأفردوا لكل فن بابًا، فبعد أن كان كل شيء يروى على علاته، مال العرب في هذا العصر إلى التدقيق والبحث، فمِن شكٍّ في رواية، إلى معارضة شعر بشعر، ونبغ في هذا نقاد الشعر، كقدامة بن جعفر وابن رشيق الأصبهاني والثعالبي؛ فمنهم من انتقد الرواية، ومنهم من انتقد الشعر، وكل هذا نشأ فيهم من اطلاعهم على العلوم الجديدة؛ الفلسفة والمنطق، فنمت فيهم هذه المَلَكة وأصبحوا لا يقبلون شيئًا على علاتة، فأخذوا ينقدون ويمحصون ويعارضون شاعرًا بشاعر، ويدلون على أسبقية بعضهم على بعض، وسرقات المعاني والأفكار، ويحكمون بالأسبقية لمن أجاد إخراج الصور. كان جل اعتمادهم

على الصناعة اللفظية ونقدها، وقلما تعرضوا للأفكار إلا في بعض أماكن. كان همهم أن يدلوا على مخالفات الفصاحة والقواعد والركاكة المخالفة لعلم البلاغة، وأهم من قام بهذا العمل، أربعة: الأصبهاني، الثعالبي، ابن رشيق، العسكري، والأصبهاني، والمبرِّد وأبو عبيدة والأصمعي والجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه والقالي، ومن سبق ذكرهم، كل هؤلاء أدباء عنوا بالأدب جد العناية، ولكنهم لم يُجمِعوا كلهم على طريقة واحدة؛ فالجاحظ وغيره كتبوا مزيجًا في الأدب وغيره، أما **الأصبهاني** الذي ندرسه فلم يكتب إلا الأدب وما تبعه من مقدمات ونتائج.

**حياته:** عربي أموي، وُلد في أصبهان، يتصل نسبه بمروان بن الحكم، شيعي، وإن كان أمويًّا، اسمه علي بن الحسين، وكنيته أبو الفرج، وقد نشأ في بغداد وكان من أفراد مصنفيها الأفذاذ، قوي الحافظة عالم بالأنساب، صادق الرواية، عارف بفنون كثيرة، وهو شاعر أيضًا، وله كتب عديدة، أشهرها كتاب الأغاني الخالد الذي حفظ كنوزًا أدبية خالدة كانت فُقدت لولا عنايته واجتهاده.

**شخصيته:** أديب ظريف، سليط اللسان، مخشي البادرة، ملمٌّ بعلوم كثيرة، عالم بالأنساب، عارف بالمثالب، ولذلك هابه الناس حتى الأمراء منهم، فقبلوه في مجالسهم وتوددوا له لظرفه وحسن حديثه، مع أنه كان قذر الثياب قلما يغسلها ويبدلها، حسن النقد لما يسمع، كان كاتبًا أكثر منه شاعرًا، يُحسن التأليف والتصنيف، وكفى بكتاب الأغاني دليلًا يمثل لنا الأدب الواقعي أصدق تمثيل. أسلوبه قصصي، يحسن القصَّ إلى أبعد مدى، لا يكفُّ عن موضوعه حتى يخرجه كاملًا محيطًا كافيًا.

**الأغاني:** ألَّفه في خمسين سنة، بناه على المائة الصوت التي اختيرت للرشيد وزاد عليها، وذكر سير أصحابها وتعرَّض إلى ما تعلق بها من حوادث، فجاء الكتاب تاريخ أشخاص ووقائع ومغازٍ وأيام وحوادث حب وحرب وشعر

وفكاهة، هذا الكتاب هو بحق ديوان العرب، رفعه إلى سيف الدولة الحمداني فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه. ويقولون إن الصاحب بن عباد استغنى به عن مكتبته الضخمة. طُبع الكتاب في ٢١ جزءًا، ووضع له فهرستًا العلامة جويدي الطلياني فجاء في ٤ أجزاء، وتأثر الأصبهاني بطريقة الجاحظ فكاد يدنو منه، ولكن اختلاف الشخصية لم يمكنه من ذلك، فظل بينهما فارق.

**الثعالبي:**

**حياته:** أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري الثعالبي نسبة إلى الثعالب؛ لأنه كان فرَّاء، وخاتمة أدباء هذا العصر، في الترسل، وأكثرهم آثارًا وأوسعهم مادة. وهو الذي جمع أخبارهم وأقوالهم، فجاء عمله هذا جزءًا متممًا لما فعله صاحب الأغاني، فكان زعيم المؤلفين والمصنفين. قال الشعر وأجاده، فهو ناثر مبدع وشاعر مجيد، وتعمَّد السجع فيما دوَّن وكتب، أما صاحب الأغاني فأرسل الكلام على السليقة كما يتلفظ به العربي في بداوته، بدون سجع ولا تنميق، وقد نظر في الشعر الذي رواه وانتقاه نظرة مدقق خبير، ففاضل وقارن وأحسن الانتقاء والاختيار. وكان يميل إلى شعراء الشام في حكمه، فحكم لهم في السبق في حلبة الشعر، وأيد ما قاله ببراهين وأدلة. الحق يقال إن لواء الشعر في عصره كان معقودًا للشاميين.

**اليتيمة:** لولا اليتيمة امَّحى ذكر شعراء كثيرين. فهذا الكتاب يحتوي على أخبار شعراء المائة الرابعة الهجرية، وهو أربعة مجلدات فيها عدة أبواب: باب لشعراء الشام، وخصوصًا المتنبي وأبا فراس وغيرهما، وباب لشعراء المغرب ومصر، وباب لشعراء الموصل، وباب لآل بويه وشعرائهم وكتابهم، وباب عن شعراء البصرة وبغداد والعراق كافة، وبابان خاصان بابن العميد الصاحب، وشعراء أصبهان، والقادمين على الصاحب، وشعراء الجبل وفارس والأهواز وجرجان، ودولة بني سامان، ففضلاء خوارزم، وفصول عن أبي بكر الخوارزمي والهمذاني والبستي والميكالي، وشعراء خراسان والطارئين

على نيسابور... إلخ، ولا عيب في كتابه إلا أنه مال إلى السجع كما قلنا، في حين أن هذا الإنشاء ليس بالأسلوب التاريخي، وله غير هذا الكتاب كتب كثيرة، بعضها مطبوع والآخر محفوظ في المكاتب الكبرى في أقطار مختلفة، وقد أحصاها جرجي زيدان في كتابه فبلغت ٣٦ مؤلفًا.

**ابن رشيق**

**حياته:** هو من أهل القيروان، واسمه أبو العباس الحسن بن رشيق من أهل القيروان. كان صائغًا كأبيه، ثم تحول إلى الأدب، ورحل إلى القيروان وامتدح صاحبها واتصل به. وظلَّ في القيروان حتى خربها العرب وقتلوا صاحبها، فانتقل إلى صقلية وأقام بمازر حتى مات.

تآليفه: العمدة: كتاب يبحث في صناعة الشعر ونقده وعيوبه، قسَّمه مؤلفه ابن رشيق إلى أبواب: في فضل الشعر وأشعار الخلفاء والفقهاء ومن رفعه ووضعه الشعر، واحتفاء القبائل بشعرائها ... إلخ. وأوزان الشعر وحدوده، والبلاغة والإيجاز والاستعارة ... إلخ، وأنواع الفصاحة والأوزان وجوازاتها.

يتخلل كل أبحاثه طائفة منتقاة من جيد الشعر، وبحث تحليلي في الشعر ومعانيه على طريق الانتقاد. وقد قال ابن خلدون في هذا الكتاب: إن كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله.

**العسكري**

أبو هلال، صاحب كتاب الصناعتين: النظم والنثر. كتب في هذا الباب على نسق من تقدموه، وقد بيَّن معايب الشعر ومحاسنه، وبحث علم البلاغة بحثًا دقيقًا، ونقد الشعر على طراز من سبقه، وكتابه هذا جزيل الفائدة، وهو مطبوع.

**********

# الفصل الرابع:
# أدب الدويلات العباسية

## الأدب بصفة عامة:

في سنة ٤٢٢هـ تولى القادر، فظهرت في أيامه الدولة السلجوقية وانقرض بنو بويه، فساد السلجوقيون في الدولة العباسية زمنًا، وفي أيام المستظهر ٤٩٠، ظهرت دولة بيت خوارزم وبدأت الحروب الصليبية، التي ظلت زهاء قرنين، وسنة ٥١٢، تولى المسترشد فطمح إلى استرجاع حقوق الخلافة واتخذ عسكرًا، وجرت حرب بينه وبين السلطان محمود ثم تصالحا، وفي أيامه ظهر عماد الدين زنكي وحارب الخليفة ثم تصالحا، وأُسر الخليفة في حرب مع السلطان مسعود ثم قُتل ٥٢٩، وفي أيام المقتفي ظهر نور الدين زنكي وملك البلاد الشامية ثم مصر، وفي أيام الناصر، اشتدت الحروب الصليبية وحدثت الحروب التترية، وانقرضت الدولة السلجوقية، وزحف جنكيزخان إلى البلاد الإسلامية، وفعل فيها الفظائع، فقاومه ملوك الإسلام دون جدوى، وفي أيام المستنصر المتوفى سنة ٦٤١، تمكنت التتر من أكثر البلاد، وفي ولاية المستعصم ظهرت دولة المماليك الجراكسة في مصر، وزحف التتر على بغداد فقتلوا أعيان بغداد وفي جملتهم الخليفة وأولاده، وارتكبوا الفظائع في بغداد أربعين يومًا. وبموت هذا الخليفة انقرضت الدولة العباسية من بغداد سنة ٦٥٥، وعدد خلفائها ٣٧ خليفة ومدة ملكهم ٥٢٤ سنة.

انقطعت الخلافة ثلاث سنوات ونصف، حتى جدَّدها المستنصر في مصر وحارب التتر، إلى أن تولى بعده الحاكم الذي ظهرت في أيامه الدولة

العثمانية. وظلت الخلافة العباسية في مصر ٢٥٥ سنة حتى انتقلت من آخر خليفة منهم إلى بني عثمان سنة ٩٢٢هـ.

## أولا: الشعـــر

إن ما حل بخلفاء الدولة من المصائب، وما أصاب المملكة الإسلامية العربية من التضعضع بسبب الحروب والفتن التي توالت –كما رأيت– قد أقلَّ الذين يهتمون للشعر والشعراء، ويأخذون بناصر الأدباء والعلماء، وإذا كان المتنبي شكا وقال: وما تفلح عرب ملوكهم عجم، فماذا يقول شعراء هذا العصر الذين أصبح ملوكهم لا يفهمون لغتهم! فلهذا انصرفت الشعراء إلى الفقه والتصوف، وغير ذلك من الأغراض، إلا أنهم ظلوا يتحدَّون أسلافهم الشعراء وينسجون على منوالهم. نظموا في الفخر تقليدًا لمن تقدموهم، والفرق بين الفريقين أن المتقدمين فخروا بأشياء اندفعوا إلى الافتخار بها، أما هؤلاء فافتخروا ليقال إنهم افتخروا! وبماذا يفخرون، وقد صاروا إلى الانقراض؟! وقِس على ذلك المدح؛ فالأولون مدحوا ملوكًا هابهم زمانهم، أما هؤلاء فالميدان أمامهم ضيق. وأما لغة الشعر فضعفت عما قبل لبعد العهد بالعرب وفصاحتهم، وتسربت الركاكة إلى الصناعة اللفظية كما فعل المنشئون، فامتلأت أشعارهم بأنواع البديع. وإمام هذه الطبقة الصناعية ابن الفارض الذي بلغ حد الإعجاز.

**بهاء الدين زهير**

**حياته:** وُلد بوادي نخلة على مقربة من مكة، ونُقل إلى مصر حيث نشأ وتأدَّب. اتصل بالملك الصالح ابن الملك الكامل من دولة بني أيوب، ورافقه إلى الشام والجزيرة، ولما غلب هذا الملك ابن عمه الناصر وأسره، أقام البهاء بنابلس، حتى عاد سيده إلى الملك واسترد الديار المصرية، فصار

البهاء وزيره، وظل كذلك حتى مات الملك الصالح، فانزوى البهاء إذ ذاك وظل كذلك حتى مات بالوباء سنة سقوط بغداد في أيدي التتار.

**شعره:** كان البهاء دمث الأخلاق، رقيق الطبع، لين الجانب، عذب الكلام، فأثَّر ذلك في شعره، فكان من السهل الممتنع. شعره صورة محيطه وصورة أخلاقه وطبعه. لم يقلد أحدًا فيه، ولم يلتجئ إلى غير شعوره لإخراج صُوَره الشعرية، وقد عبَّر بلغة عصره وأساليبها، فخلا من كل تعقيد وغرابة، يفهمه كل قارئ، وإننا لنستطيع أن نقول فيه: إنه حلقة الاتصال بين العامية واللغة الفصحى العالية الأسلوب، وقد أجاد في الغزل والرثاء؛ لأنه لغة العاطفة، وألحق بهما العتاب الذي هو ضرب من الغزل. ترجم ديوانه المستشرق بلر الإنكليزي في مجلدين، وعلَّق عليه الحواشي، وكان يعوِّل على الأوزان الخفيفة شأن شعراء بغداد الماجنين. مدح ولكنه لم يبرز في المدح، ولم يكن شأنه فيه شأنه في الغزل، وأغلب نظمه في وقائع معلومة بينه وبين أحبابه، وقد كان نزَّاعًا إلى الخروج على المألوف في اللغة كقوله:

**بروحي من أسميها بستِّي فينظرني النحاة بعين مقت**

وعمد إلى الصناعة اللفظية، ولكنه لم يكثر منها إلَّا في مناسبة، بل لا يعتمدها.

## ثانياً النثر:

**ميزته:** تمكنت السيادة للأعاجم، فأصبح العرب وغيرهم من رجال القلم مضطرين للتملق، فنمَّقوا العبارة وبالغوا في الإطراء والمديح، فتأنَّقوا في إنشائهم، وزينوا عبارتهم بأنواع البديع والسجع، فتخطوا الحدود التي رسمها من تقدَّمهم، حتى تعمَّد هذا السجع كل الكتَّاب من مؤرخين وغيرهم، فأصبحت كتبهم أحجية لا تُدرك إلا بالجهد العظيم، ومن أئمَّة إنشاء هذا العصر القاضي الفاضل مقلد بن العميد.

**القاضي الفاضل:**

هو فلسطيني، ورد مصر وكتب أولًا في ديوان الظافر، ثم استوزره صلاح الدين أيوب، فساس ملكه، ووزر من بعده لابنه ثم لأخيه حتى توفي.

**أسلوبه:** مزيج من أسلوب الكتَّاب قبله، كالصاحب، وخصوصًا ابن العميد. إنما امتازت كتابته في الإغراق في التورية والجناس، فأكثر السجع جدًّا، وظل مذهبه شائعًا حتى عهد ابن خلدون.

**الحريري:**

أبو محمد القاسم بن علي بن عثمان الحريري البصري، اشتهر بمقاماته المشتملة على أكثر كلام العرب وأمثالها ولغاتها، كان في أول أمره يبيع الحرير، ثم تحول إلى الأدب فطارت شهرته، وقرَّبه الأمراء وقصده المتأدبون للاستفادة من علمه.

**أخلاقه:** كان دميمًا، قصير القامة، بخيلًا قذرًا، أن تسمع به خير من أن تراه، كما قال هو عن نفسه لذلك الذي قصده ثم استبشع منظره.

**نثره وشعره:** مكثرٌ في النثر، مقلٌّ في الشعر، متبعٌ بديعَ الزمان، ممهدٌ للأسلوب الفاضلي. قلَّل من البديع وبالغ في الصنعة، فقلَّت معانيه وكثرت ألفاظه، وشعره كنثره تنميقًا وصنعة.

**مقاماته:** وضعها على طريقة بديع الزمان، ويقول إن سبب وضعها أنه كان في مسجد بني حرام، فدخل شيخ عليه طمران، فسأله الحاضرون: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج. فسألوه عن كنيته، فقال: أبو زيد، وجعل الراوي الحارث بن همام مريدًا نفسه، ثم زادها حتى بلغت الخمسين بناء على طلب الملك الأشرف، وقد طُبعت هذه المقامات وتُرجمت مرات عديدة.

**تآليفه:** وللحريري غير المقامات، كتاب درَّة الغواص في أوهام الخواص، بيَّن فيه أغلاط الكتَّاب الكبار. وكتاب ملحة الإعراب في النحو، وهو أُرجوزة. والرسالة السينية؛ أي إن أول كل كلمة فيها سين. ورسالة أخرى في الفرق

بين الضاد والظاء، وظلت المقامات متبعة حتى آخر العصر التاسع عشر، وقد يكتب فيها بعض كتَّاب اليوم ولا يلتزمون السجع.

## علوم النحو واللغة

وكثر في هذا العصر علماء النحو واللغة، وقام منهم في كل قطر رجال عديدون كالجرجاني.

**الجرجاني:**

مؤسس علم البيان، وأشهر تآليفه أسرار البلاغة، وضع هذا العلم على قواعد راسخة، وهو يقول إنه اندفع إلى كتابة هذا التأليف عندما رأى الكتَّاب انصرفوا عن المعاني إلى الألفاظ. وعلى منواله نسج المؤلفون فتوسعوا في هذا العلم، ثم جاء بعده السكَّاكي والميداني وهو من علماء اللغة أيضًا، جمع أوفى كتاب في الأمثال. والزمخشري، وأشهر كتبه المفضل في النحو، وكتاب أساس البلاغة، وهو نسيج وحده يبحث في استعمال الألفاظ ومواضعها من الجمل، وله أطواق الذهب، وهو كتاب وعظ وأدب على طريقة المقامات، إنما لا قصة فيه. وله كتاب المستقصي في الأمثال، مرتَّب على الحروف الهجائية.

**ابن الحاجب:**

وفي هذا العصر ابن الحاجب. كان والده حاجبًا للأمير عز الدين الصلاحي بمصر. تأدَّب في مصر، وانتقل إلى دمشق وعلم في جامعها، ثم انتقل إلى الإسكندرية ومات فيها.

**تآليفه:** الكافية في النحو، الشافية في النحو أيضًا، وهو مختصر الأمالي النحوية.

## التاريخ الطبيعي

لم يكن هذا العلم مرتبًا ودقيقًا كما هو اليوم، ولكن العرب كتبوا في هذا كتبًا درسوا فيها الحيوان والنبات وما يتبع ذلك من المواد التي تُعرف اليوم بالتاريخ الطبيعي. فقد علمنا أن الجاحظ كتب في الحيوان كتابًا جليلًا درسناه في محله، أما في هذا العصر فقد كَتب في الحيوان، كمالُ الدين الدميري.

**الدميري:**

كتب «كتاب حياة الحيوان الكبرى» وهو معجم مرتَّب على أسماء الحيوانات، وصف فيه كل حيوان وأصل اسمه، وما جاء من الحديث والأمثال بشأنه، مع خصائصه الطبية وتفسيره في الأحلام. وفي الكتاب أيضًا — على عادة ذاك الزمان — ترجمة من يأتي على ذكرهم من المشاهير والأعيان والخلفاء والشعراء والأدباء... إلخ.

## الرياضيات

من المؤلفين في هذا العلم، في هذا العصر، الشيرازي. له كتاب نهاية الإدراك في دراية الأفلاك. ابن البناء المراكشي كتاب تلخيص أعمال الحساب.

## الفلسفة

القزويني، له كتاب الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية. وله كتب غير هذا الكتاب.

## التاريخ والجغرافية والأسفار

نضجت في هذا العصر مواد التاريخ، وعرف الناس كيف يكتبون فيه، وتعددت الملوك في كل الأقطار، وكل ملك يرغب في تاريخ عهده، فكثر الذين كتبوا فيه، فمنهم من كتبوا التاريخ العام، ومنهم من كتبوا التاريخ الخاص، فتعددت كتب التاريخ في هذا العصر من سِيَر إلى تواريخ دول إلى تراجم مشاهير وتواريخ مدن... إلخ، وكذلك جرى في كتب الجغرافية

والرحلات والأسفار، فبتعدد العواصم والديار كثرت الأسفار، فدوَّن الكتَّاب ما رأوا وشاهدوا.

**الإدريسي:**

أبو عبد الله محمد بن إدريس الصقلي. تثقَّف في قرطبة، ألَّف كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، لصاحب صقلية روجر الثاني. بدأ في كتابه بصورة الأرض التي رسمها، وأخذ في وصف أشكال الأرض وطبيعتها واستدارتها وأطوالها. كانت جغرافية الإدريسي هذه عمدة هذا العلم في أوروبا لتقويم البلدان أجيالًا، فرسموا خرائطها وترجموها للغاتهم، ويظهر أن الإدريسي كان عارفًا في منابع النيل فصوَّرها بحيرات عند خط الاستواء كما يقول عنها علماء هذا الزمان. وفي هذا الكتاب خرائط ورسوم قيِّمة.

**ابن جبير:**

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي. رحل رحلات عديدة إلى مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية، فوصف كل هذه الأقطار وما فيها من الغرائب والآثار.

**ياقوت الحموي:**

هو رومي الجنس، حموي المولد، بغدادي الدار، أشهر جغرافي عربي وأغزرهم مادة وأجلهم نفعًا، أُسر صغيرًا فابتاعه تاجر بغدادي اسمه عسكر الحموي، وعلَّمه لينتفع به في ضبط تجارته. أشغله مولاه في أسفاره التجارية، فاستفاد بالمطالعة، وجاء دمشق وكان متعصبًا لعلي، فثار عليه الناس ففر وتنقل في بلاد كثيرة حتى ألقى عصا الرحيل في خوارزم، وفيما هو هناك خرج جنكيزخان على البلاد الإسلامية ففر ياقوت وظل هاربًا حتى استقر بظاهر وهناك مات.

**ميزته:** مؤلف محقق، حسن الترتيب والتبويب، كما يظهر من كتبه.

**كتبه:** معجم البلدان: معجم جغرافي كبير، حافل بأسماء مدن وقرى البلاد حتى أسماء الجبال... إلخ، وفي هذا الكتاب، فوق الجغرافية، أدب كثير؛ فهو يروي شعرًا كثيرًا، وتاريخ كل من أنجبته البلدان التي كتب عنها؛ من شعراء وعلماء وفقهاء وأدباء وخلفاء... إلخ.

**معجم الأدباء:**

وهذا كتاب آخر وهو المعجم، تاريخي أدبي، أوسع من كتابه الآنف الذكر. ذكر فيه سِيَر النحويين واللغويين والمؤرخين والكتَّاب، وكل من ألَّف في الأدب.

**المقريزي:**

بعلبكي الأصل، عرف بهذا الاسم نسبة لحارة المقارزة. كان جده من كبار المحدثين في بعلبك، تحول والده إلى القاهرة فوُلد له تقي الدين المقريزي، تعلم فنونًا كثيرة ونظم ونثر، وتولى النيابة في الحكم، وكتابة التوقيع والحسبة والخطابة بجامع عمرو، واتصل ببرقوق الملك، إلى أن انصرف إلى العلم واشتغل بالتاريخ، وكتب فيه كتبًا قيِّمة هي مرجع الناس في شئون مصر تاريخيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا.

**خطط المقريزي:**

فيه جميع أخبار الديار المصرية وأحوال سكانها وآثارها من باقٍ وبائد. وعند الكلام عن أثر بقيض في تاريخه يسرد ما توالى عليه من الحوادث والنكبات، وله غير هذا الكتاب كتاب تاريخ مصر «السلوك لمعرفة دول الملوك». وله أيضًا تاريخ الدولة الفاطمية. وهناك كتب عديدة لا نستطيع عدَّها في هذا الموجز.

**المقري:**

وُلد في تلمسان وسمِّي المقري نسبة إلى قرية نُسب إليها آباؤه، تعلم في فاس ومراكش، ثم نزل القاهرة وزار القدس وحج خمس مرات، وأقام في المدينة وأملى الحديث، وعاد إلى القاهرة ومات فيها فجأة.

**تآليفه:** نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، يحتوي تاريخ الأندلس وفتح المسلمين لها ومَن حَكَمها من أمراء وخلفاء، وترجم لمئات من أدبائها وشعرائها، وذكر من أشعارهم، خصوصًا لسان الدين بن الخطيب الذي أسهب جدًّا في وصفه ورواية أدبه. وخلاصة الكلام، أن كتابه هذا يصور الأندلس من كل مناحيها.

## النقد الأدبي:

أول من تصدى للنقد كان الجاحظ، وهو أبو الأدب العربي، وجاء بعده ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب، ثم عالج هذا الموضوع كثيرون؛ كالخوارزمي والثعالبي وأبي هلال العسكري، بيد أن انتقادهم لم يكن المقصود من كتبهم. أما انتقاد الألفاظ وغلط العوام فتصدى له كثيرون، وهذا دفع إليه امتزاج العرب بالعجم، ولكن نقد الإنشاء من حيث هو فن مستقل بنفسه، فكتب فيه الجرجاني الذي تقدم ذكره، واضع علم البلاغة، واستحسن المنشئون هذا العلم فتوسعوا فيه وزادوا عليه، فكان من أئمة هذا العلم ابن الأثير صاحب المثل السائر، فاستوفى هذا العلم وأشبعه بحثًا وقتله درسًا.

**ابن الأثير:**

هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله الجزري، المعروف بابن الأثير، وُلد في جزيرة ابن عمر، وانتقل مع والده إلى الموصل، وهناك حصَّل العلوم وحفظ من شعر العرب شيئًا كثيرًا أعانه على الإبداع في النظم والنثر، اتصل بصلاح الدين ثم بابنه الملك الأفضل نور الدين، ولما توفي صلاح الدين واستقل ابنه بمملكة دمشق، استقل ابن الأثير بالوزارة وردت أمور الناس إليه، فأساء معاملتهم فكرهوه. ولما تقلَّص ظل وليِّه، همَّ الناس بقتله، فأخرجه

الحاجب محاسن بن عجم في صندوق مقفل عليه، فلحق بمولاه وصحبه إلى مصر، وفي مصر أساء معاملة الناس أيضًا، ولو لم يهرب لكانوا قتلوه، وظل يسيء معاملة الناس ويتنقل من مكان إلى آخر حتى أدركته الوفاة.

**أخلاقه:** متكبر، مدَّعٍ، شرس الأخلاق، مطبوع على حب الاستبداد.

**كتابه:** «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر». مؤلَّف نفيس، وافر المادة، مُحكَم الوضع، جمع أصول علم الإنشاء وفروعه، لم يترك مسألة إلا شرحها، ولا فائدة إلا سجَّلها، ولا بحثًا إلا جال فيه، مبينًا محاسنه، كاشفًا عن معايبه، فجاء كتابه هذا جامعًا لكل فنون الكتابة مبوَّبًا مرتَّبًا بكل دقة، يشهد لصاحبه برسوخ القدم في هذا الفن، وغزارة علمه في هذا الفرع، إلا أنه –سامحه الله– بدأ بالادعاء المشين من مقدمته إلى خاتمته، فلا تمر صفحة إلا نرى فيها إلفات نظر إلى ما استنبط ابن الأثير، أو إلى ما نظم، أو إلى ما أدرك، وهلمَّ جرًّا، حتى يخيل إلى القارئ أنه وضع هذا الكتاب ليبين لنا اقتداره وتقصير كل من تقدموه.

**موضوع الكتاب:** صناعة الإنشاء لفظية ومعنوية، وفي آخره فصل في النقد دل فيه على سرقات الشعراء، وقسَّم السرقة إلى ثلاثة أقسام: نسخ وسلخ ومسخ، وقسَّم كل نوع إلى أبواب، ولقد أجاد في كل ما كتب في هذا السفر الذي لا عيب فيه إلا ادعاء صاحبه.

********

# عصر الانحطاط:

## (٨-١) المغول

سقوط بغداد: زحف جنكيزخان بجيشه فاكتسح خراسان ففارس، وأعمل سيفه في كل بلد نزل فيه، فما كان يترك مملكة إلا قفرًا يبابًا. وبعد ثلاثين عامًا ونيف، زحف ابنه هولاكو فعبر نهر جيحون، قاصدًا بغداد، فاستولى على قلعة «ألموت» وذبح من فيها من الجنود، وفي سنة ٦٥٥، نشب خلاف بين الشيعة والسنة كان أشبه بحرب داخلية قُتل فيها عدد من الشيعة، فغضب لذلك الوزير ابن العلقمي فشجَّع التتار على غزو العراق والاستيلاء على بغداد، فملكوها وقتلوا الخليفة المستعصم بالله، وأعملوا السيف في بغداد ٣٤ يومًا، فما نجا إلا من قدِّرت له النجاة، فدالت دولة العرب ولم يبقَ لهم من صورة الملك إلا دويلات لا شأن لها ولا قيمة.

**رجال العلم:**

وقف رجال العلم تجاه هذا الحدث الخطير وقفة حائر، نظروا إلى بغداد ملجأ العلماء فإذا نار الإرهاب والفتك مضطرمة بها، رأوا كل شيء عربي معرضًا للفناء، فعلمهم وأدبهم يُقذف به إلى نهر دجلة، ففكروا إلى أين يهربون ويلجئون؟ فلم يروا أمامهم إلا مصر والشام.

## (٨-٢) مصر المماليك:

كان المماليك رجال حرب وفتك لا يميلون إلى الترف واللهو، بعضهم متمسك بالدين، إنما الدين الذي تُصوِّره له فطرته وتلوِّنه بيئته ونشأته، فكانوا يمزجون الدين بالسياسة إذا اضطروا إليه لجذب قلوب الناس، ولهذا أنشئوا الجوامع والمدارس والملاجئ والمصحات، وحبس المال على عمل البر، وتقريب العلماء وتشجيعهم على نشر العلم بالمدراس والتأليف. وقد يكون الدين عندهم لإذكاء نار الحرب كما وقع لهم إذ رأوا أنفسهم حماة الإسلام،

وملجأ الأمم العربية المهزومة؛ فالملك الظاهر بيبرس حمى خلافة بني العباس وتقبل ولاية الحكم من المستنصر بالله العباسي الذي فر من وجه التتار إلى مصر.

**هجرة العلماء:**

أخذت القاهرة مكان بغداد فأصبحت دار العلم لما فيها من مدارس ومجالس، فشرعوا يؤلفون ويكتبون وينثرون وينظمون، ثم فر علماء الأندلس أيضًا إلى مصر؛ لأن ما حل بالعباسيين حل ما يشبهه بالأندلسيين، ولكن هجرة العلماء إلى مصر والشام لم تترك أثرًا بيِّنًا في الحياة في هذين القطرين، بل لم تتعدَّ غيرهما من بلاد المشرق، ولم تُحدِث أي حدث اجتماعي؛ لأنها كانت علمية أدبية دينية ليس غير؛ فمقدمة ابن خلدون، نزيل مصر أيام السلطان، لم تُحدِث أقلَّ تأثير مع أنها تتضمن كثيرًا من الآراء الاجتماعية الناضجة، وتحتوي على آراء سديدة في سياسة الممالك وإنهاض الشعوب. وما السبب إلا جمود الناس وتمسكهم بالقديم، وخمول الشعب وجهله.

**ضعف النثر:**

ضعف النثر لشغف الكتَّاب بتزيين اللفظ وتجميله بالسجع، وتحليته بالبديع، وانصرافهم عن المعاني والأفكار، فإذا قرأت لكاتب مقالة في هذا العصر رأيت أنها لا تشتمل على معنى باهر أو فكرة بعيدة؛ لأن الكتاب كانوا يفكرون في الألفاظ قبل المعاني، وفي هذا مقاومة للعقل؛ فلهذا جاء الإنشاء متكلفًا خائرًا، وهذا الضعف بدت بوادره قبل سقوط الدولة العباسية بزمن غير يسير، غير أن الكتَّاب في هذا الزمان نسجوا على منوال القاضي الفاضل، فالتزموا السجع والتورية وغالوا في ذلك جدًّا، حتى أتوا بما ينافي الذوق.

**ضعف الشعر:**

وبدت على الشعر آثار الضعف والتقهقر؛ لأنه لم يرسل مع الطبع والسليقة، كما كان شأنه في العصر العباسي الأول. ضعفت الملكة الشعرية والخيال والابتكار والتوليد، وأحس الشعراء ذلك فلجئوا إلى العناية بالألفاظ، فجعلوها براقة خلابة، ولكنها لا تخلو من براعة، وكادت تكون جميلة لولا خلوها من الأفكار التي يهتز لها الفكر الإنساني أكثر من الكلام. لقد كانوا كاللاعب على الحبل يدهشك بلباقته، ويؤسفك أن يضيع وقته بأمور تافهة كهذه، وقد ظل الشعر أرقى بكثير من النثر؛ لأن تقيُّده بالوزن والقافية لم يفسح للمحسنات اللفظية لِتلِجَهُ بسهولة وكثرة، كما كان شأنها في النثر، ولا تنسَ جهل أكثر هؤلاء السلاطين بفنون الأدب وذوق العربية، فلو كانوا يتذوقون الأدب والشعر لانصبَّ الشعراء على عملهم الفني وأتقنوا نظمهم وجودوه؛ فلهذا لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون إلا في «حماه» حيث بقيت هذه العادة ردحًا من الزمن، ولهذا لم يكن الشعر هناك صناعة لفظية.

ومما يدل على انحطاط الشعر تصدي معظم الفقهاء والعلماء والكتَّاب لنظمه من غير هيبة ولا خشية. وإليك مثالًا من ذلك الشعر، قاله أحدهم في السلطان برقوق:

**سلطان مـــصر دام فضل علائه قد عمَّنا بالفضل والإحسان**

**لم أنسَ يوم السبت حسن مهمِّه قد كان يومًا جاء بالسلطان**

**الحلِّي:**

هو صفي الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا الحلِّي. وُلد ونشأ في الحلَّة، أيام كانت العراق تعج بالبلايا وتنهلُّ عليها الدواهي. هجر الشاعر مسقط رأسه وأمَّ الملوك الأكراد آل أرتق أصحاب ماردين، فأحسنوا وفادته وأجزلوا صلته، وصانوا مهجته من الاعتداء. فرتع في ظلِّهم، فقال فيهم شعره

الجيد ويُعرف بالأرتقيات، منها ٢٩ قصيدة كل منها ٢٩ بيتًا على حرف من حروف المعجم، يبدأ به البيت ويختم به من الهمزة إلى الياء. ووسم هذا المجموع بدرر النحور في مدح الملك المنصور، وورد الحلِّي مصر ومدح ملكها الناصر بقصيدة غراء ليس فيها هذه الصنعة، ثم عاد إلى ماردين، وحنَّ إلى وطنه، فعاد إليه وهناك مات.

**شعره:** أغراضه: لم يدع الحلِّي بابًا من أغراض الشعر إلا ولجه، وقد بنى ديوانه على أحد عشر بابًا ولجها كلها وغالى في المجون والإحماض.
أوزانه وضروبه: نظم القصائد مطوَّلات، ومقطَّعات، ومخمَّسات، ومشطَّرات، وموالليا، وزجل، وقوما، وكان كان... إلخ.

**قيمته:** إن هذا الشاعر يعد إمامًا للصناعة اللفظية في الشعر، فنسج على منواله كثيرون ممن جاءوا بعده، فصرفوا عنايتهم إلى الجناس والتطبيق والتنسيق، فأصبح الشعر صورة جامدة لا تجري فيه ماوية الحياة والعاطفة، ثم تدرَّج شيئًا فشيئًا حتى صار لا تشتهي أن تسمعه، وإذا رأيت صاحبه فلا تستحي تصفعه، بيد أن له صورة أخرى لا تقل رواء عن الشعراء المجيدين، وذلك حيث لم يتعمَّد التكلف، كما في قصيدته البائية التي مدح فيها ملك مصر السلطان الناصر، وكقصيدته الرائية التي حرَّض فيها الملك الصالح على الاحتراز من المغول ومنافرتهم عند إقبالهم، ومطلعها: لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا... إلخ، وكقصيدته الفخرية في الحماسة: سلي الرماح العوالي عن معالينا.

**الخلاصة**:

إن الحلِّي هذا زعيم شعراء عصر الانحطاط، وشعره متفاوت في الجودة، فآونة يسف دون الشعراء، وحينًا يسمو إلى ما فوق أفقهم. وعلى كلٍّ فلا تزال في شعره رائحة الشعر البليغ من فصاحة لفظ ورشاقة أسلوب، وشعره في جملته سهل الألفاظ حسن المعاني، إلا ما تكلفه منه للمعاياه وإظهار

الحذق والمقدرة اللغوية والفنية، فإنه جاء رديء النسج، ثقيلًا على السمع، ومن هذا في ديوانه شيء كثير. وهو أول من نظم في المدائح النبوية.

**ابن الوردي:**

**حياته:** هو زين الدين عمر، وُلد في معرة النعمان ومات بحلب، برع في الأدب والنحو واللغة والتاريخ والفقه، له مؤلفات تاريخية: تتمة المختصر في أخبار البشر. وله في النحو: اللباب في الإعراب، وشرح ألفية ابن مالك. وترك في الأدب ديوان شعر، ومقامات كالحريري، وقصيدته الحكمية المعروفة بلامية ابن الوردي. وقد طبع أحمد فارس الشدياق هذا الكتاب في مطبعته بالأستانة.

**شعره:** بسيط الأسلوب، وسط في جودته، كان يحسِّنه بالأنواع البديعية متبعًا عصره في ذلك. هذا الشاعر الذي ينهى عن قول الغزل ويأمر بمجانباته، نرى في ديوانه مقاطع غزلية لها قيمة وقدر.

**ابن نباتة:**

ومن شعراء هذا الزمان ابن نباتة. في شعره رقة وسهولة وإيراد ونكتة مستملحة. ولا غرو فهو مصري المولد والمنشأ.

**الشاب الظريف:**

وهو شاعر مصري أيضًا، رقيق الكلام منسجم العبارة.

ومن الشعراء أيضًا: التلعفري، والبوصيري، وهذا شاعر اشتهر بقصيدته: «البردة» في مدح النبي، يعرفها عدد لا يحصى من البشر، وطبعت طبعات مختلفة، وله أيضًا قصيدة نبوية همزية، لا تقل عن البردة الميمية رونقًا وجلالًا، أما شعره في غير هذا الغرض فليس بالشعر العالي.

## التأليف والمؤلفون:

في هذا العصر كثر التأليف في كل الفنون والعلوم، ولعل من أقوى الأسباب كثرة المدارس، وميل ملوك القاهرة إلى اقتناء الكتب النادرة، وإنشاء الخزانات لأنواع عديدة من المؤلفات، ولكن التأليف في هذا خلو من الابتكار، وما هو إلا جمع من آثار المتقدمين، هذا إذا استثنينا تاريخ ابن خلكان وخطط المقريزي.

## علوم اللغة والتاريخ:

من أئمة علم النحو في هذا العصر ابن مالك الطائي، دمشقي المولد، اشتهر في تسهيل الفوائد في النحو. والألفية، وهي النحو، يعرفها الكثيرون بابن عقيل لأنه شرحها. واشتهر أيضًا بكتاب الكافية، ولامية الأفعال، وهاتان أيضًا منظومتان في النحو كالألفية.

**ابن منظور:**

صاحب لسان العرب، وهو أكبر معجم عربي يقع في ٢٠ مجلدًا، مرتَّب على أواخر الكلم، ويعد دائرة معارف في اللغة والأدب والتفسير.

**ابن هشام:**

صاحب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وهو كتاب درس فيه النحو درسًا عميقًا دقيقًا، وخصوصًا معاني الحروف.

**ابن خلكان:**

كان قاضيًا مدرِّسًا. أشهر تآليفه كتاب وفيات الأعيان، وهو معجم تاريخي يدل على ابتكار وتدقيق، ومرجع في التاريخ واللغة والأدب.

**ابن خلدون:**

تونسي المولد، تنقَّل بين المغرب والأندلس كاتبًا ومشيرًا لأمرائهما، ثم رحل إلى مصر واتصل بالسلطان برقوق، فولاة قضاء المالكية، ومات في مصر.

**مقدمته:** أشهر كتاب يحق للعرب الافتخار به؛ لأنه بحثٌ جامع في علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ. بحثَ كل ذلك في أسلوب سهل شائق لم يشب بصناعة، واستنباط منطقي صحيح.

**القلقشندي:**

نبغ في الإنشاء. وله كتاب: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، اشتهر به، وهو يضم إلى صناعة الإنشاء تقويم البلدان.

**الصفدي:**

هو صلاح الدين أبو الصفاء بن أيبك الصفدي، ولد في صفد، وتلقى العلم عن ابن نباتة في دمشق، تولى ديوان الإنشاء في صفد وحلب والقاهرة.

**قيمته:** من أعاظم كتَّاب العصر المغولي وأوسعهم علمًا وأكثرهم عملًا، ألَّف في مواضيع شتى، حسن الأسلوب، وأغلب كتاباته في التراجم التاريخية.

**تآليفه:** الوافي في الوفيات، وهو معجم في التراجم. وله نصرة الثائر على المثل السائر، وهو نقد لكتاب ابن الأثير، انتقد عليه إعجابه بنفسه، واستدرك عليه أشياء فاتته، وله كتب عديدة غير هذه الكتب لا مجال لعدها هنا، وأكثرها محفوظ في مكاتب الغرب.

**أبو الفداء:**

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي الأيوبي. ولد بدمشق التي لجأ أبوه إليها عند اكتساح المغول حماة قاعدة ملكه، تأدَّب أبو الفداء على علماء عصره فبرع في العلوم اللسانية والدينية والفقه والتاريخ والطب والأدب والشعر وعلم الهيئة، كان فارسًا شجاعًا، حضر مع أبيه حصار قلعة مرقب وحصار طرابلس وعكاء.

تقرَّب من الناصر بن قلاون فسرَّ به وولاه نيابة حماة، ثم جعله ملكًا عليها، فكان الملك المحبوب المحمود الأثر.

**آثاره:** لأبي الفداء نظم ونثر وتصانيف، منها: «المختصر في أخبار البشر»، اختصره عمن تقدمه؛ كالطبري وابن الأثير المؤرخ لأصحاب المثل السائر، وتممه إلى سنة ٧٣٠هـ. وقد نقله الإفرنج إلى لغاتهم. وله في الجغرافية كتاب تقويم البلدان، جمع فيه كل مفيد. ويمتاز بضبط الأسماء وتحقيق العروض والأطوال، مع ذكر ما تجب معرفته من الأراضي والبحار والأقاليم العرفية والحقيقية على مذهب القدماء، فكان لكتابه هذا شأن عند الفرنج للوقوف على الجغرافية العربية.

**ابن العبري:**

هو أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي، ودرس الطب على أبيه، ثم على غيره من المشاهير، وتضلَّع أيضًا من سائر العلوم والفنون. كان يحسن العربية والسريانية واليونانية، ولما انقضَّ المغول على ديارهم هرب مع والده إلى أنطاكية، وانقطع ابن العبري عن العالم معتبرًا بمصائب الأمم ونكبات الدول، فلجأ إلى كهف يتعبد فيه، فاهتدى رئيسه البطريرك إليه، وعرف تقواه وسامه أسقفًا في العشرين من سنيه، وأوفده إلى طرابلس، ثم ولاه رئاسة أساقفة حلب. واعتبره هولاكو ملك المغول لفضيلته وعلمه، فأطلق هذا يده، فاستخدم هذه الحرية التي كان يتمتع بها في خدمة القريب والعلم.

**آثاره:** له مؤلفات كثيرة في السريانية، تشهد له بالعمق وبُعد الغور في الفنون. مختصر الدول: وضعه تلبية لأحد أفاضل العرب، وهو تعريب تاريخه السرياني ملخصًا، ولكنه أضاف إليه ما يتعلق بدولتي المسلمين والمغول، وقسمًا لأخبار الأطباء والرياضيين.

**القزويني:**

مؤرخ شهير اسمه زكريا بن محمد، يتصل نسبه بمالك بن أنس، كان إمامًا فاضلًا وعالمًا فقيهًا، أتقن فنون الأدب وتفقه في الدين، عيَّنه المعتصم قاضيًا على واسط والحلة، وفي دمشق تعرَّف على ابن العربي الصوفي الشهير، وأشهر كتبه هو كتاب عجائب المخلوقات في وصف الكون، وله في هذا الكتاب آراء جليلة وأخبار طريفة. وله كتاب آخر عنوانه «آثار البلاد»، وهو مثل كتابه الأول.

**ابن بطوطة:**

هو الرحالة الشهير شمس الدين أبو عبد الله الطنجي. ولد بطنجة ونشأ وتأدَّب فيها، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره قصد مكة ثم جاب العراق ومصر والشام واليمن والهند، ودخل مدينة دلهي عاصمة البلاد، وولاه ملكها خطة القضاء المالكية، ثم ساح في الأقطار الصينية وأُسر وتملَّص من أسره، فدخل بلاد التتار، وتوغل في القارة الأفريقية إلى تمبكتو، وطاف في بلاد الأندلس، ثم عاد إلى بلاد الأندلس.

**تحفة النظار:** في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وتُعرف برحلة ابن بطوطة، كتاب ضمَّنه المؤلف أخبار كل ما رآه وشاهده. طبعت في باريس ومصر، واهتم الإفرنج لهذه الرحلة كثيرًا، عندما اهتموا بالشرق والسفر إليه، عولوا عليها وانتقدوها وعلقوا عليها ونقلوا بعضها إلى اللاتينية ونشروه، وترجمت للغات عديدة.

**السيوطي:**

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال السيوطي، إمام أئمة المسلمين، وزعيم العلماء الأعلام. ولد بأسيوط، ونشأ يتيمًا بمصر، وحفظ القرآن وهو ابن ثماني سنين، وأتقن في قليل من الزمن فنون عصره، وتبحر في التفسير والحديث والفقه والنحو والبيان والبديع على طريقة العرب، وساح السيوطي في بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور

حيث كان في كل مكان يتذاكر مع العلماء ويباحثهم. وتولى تدريس الفقه في المدرستين الشيخونية والبيبريسية، فطار صيته وانتهت إليه رئاسة العلوم الدينية في عصره.

**أخلاقه:** كان حادًّا نزقًا، ثقيل الوطأة على الكتَّاب الذين يعتقد أنهم اقتبسوا من مؤلفاته، فيشهِّرهم. أما هو فكان يعبث بتآليف المتقدمين فينتحل وينسخ. كان سريع الخاطر غزير المادة سيال القلم. له ٣٠٠ مؤلف بين بسيط ووسيط ووجيز.

**قيمته:** أفاد كثيرًا بإبرازه طائفة من المؤلفات كانت امَّحت آثارها لولاه.

ولو لم يكن له إلا كتاب الإتقان في علوم القرآن، والمزهر في أصول اللغة، والأشباه والنظائر في دقائق النحو وأصوله، والهمع على الجمع، في فروع النحو والصرف وأصولهما، لكفى.

# الأدب

**الأبشيهي:**

هو محمد بن أحمد الخطيب الأبشيهي، صاحب كتاب المستطرف في كل فن مستظرف، وهو من الموسوعات الأدبية، يشتمل على ٤٨ بابًا في مباني الإسلام، والعقل والذكاء، والحمق، والقرآن وفضله، والعلم والأدب... إلخ، وبحثٌ في الملك والسلطان وطاعة ولي الأمر... إلخ، وفي العمل والكسب وأخبار العرب... إلخ، وفي الدواب والحشرات، مرتبة على أحرف الهجاء، وفي البحار وعجائبها والأنهار... إلخ، وهو يتضمن أيضًا فوائد تاريخية واجتماعية وأدبية وسياسية... إلخ، ترجمه الإفرنج إلى الفرنساوية، وطُبع في باريس وتُرجم إلى التركية، ومن علماء اللغة الذين لم نذكرهم: الفيروزابادي، اشتهر بقاموسه «المحيط»، مرتب على أواخر الكلم.

**المدارس:** ذكرنا أن المغول تغلغلوا في العراق واستولوا على ما جاورها، ففر العرب العلماء من تلك الديار إلى الشام والقاهرة حيث كانت دولة عربية اللسان، فدولة المماليك كانت تسير على خطى الأمراء والملوك العرب بتقريب العلماء والشعراء، ورغبوا في اقتناء الكتب فنشأت في عهدهم، وأول من اهتم بالتدريس على نفقته من السلاطين هو المعز الفاطمي، عمل ذلك في الأزهر، ثم عمل مجلسًا في جامع عمرو بن العاص، ثم بنى الحاكم بأمر الله دار العلم في القاهرة، ولما انقضت الدولة الفاطمية بنى صلاح الدين لكل طائفة مدرسة، وفي هذا العصر كثرت المدارس وكثر المدرسون والطلاب، فتنافس الملوك والأمراء وسراة المصريين والسوريين في إنشاء المدارس، يتقربون بذلك إلى الله لنشر علوم الدين أولًا، ثم غير ذلك من العلوم، وتكاثر الطلاب من أقطار مختلفة، فكانوا ينامون في تلك المدارس وينفقون من مال المحسنين، وكان في هذه المدارس خزانات علم كبيرة تضم عشرات الألوف من المجلدات، وأشهر هذه كانت في القطر المصري، وهي: المدرسة الفاضلية، والمدرسة الصاحبية البهائية، أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين سنة ٦٥٤، والمدرسة الظاهرية بناها بيبرس «الظاهر» سنة ٦٦٢، كان بها خزانة كتب تشتمل على أمهات العلوم.

*********

# الباب الثاني
# حول الأدب الأندلسي

# الفصل الأول:
# حول الأدب الأندلسي

## أولا: الشعر والشعراء

**الفتح العربي:**

كان الفاتحون لإسبانيا من العرب لا يعرفون من الثقافة العربية إلا القرآن الكريم وعلومه، والشعر الغنائي المشرقي الذي كان ذائعا أواخر القرن الهجري، وكذلك كان شعر هؤلاء الفاتحين لا يخرج عن أن يكون فخراً بالأصل، أو تغنياً بالشجاعة في الحروب، أو حنيناً إلى الوطن الأم، أو بكاء على الشهداء في الفتوح، ولم يبق لنا من شعر هذه الفترة إلا أخباره ووصفه. وكان لانتشار الإسلام وحرص المشرق على سلامته في تلك البلاد النائية، أن رحل كثير من علماء الدين بعلمهم إلى إسبانيا، فنمت الدراسات الدينية وانتعشت، وتبنى الأمويون في الأندلس، لأسباب سياسية مذهب مالك بن أنس الذي نشره الأوزاعي وقامت مدرسة فقهية نشرت «الموطأ» لمالك. ويذكر منهم ابن حزم الأندلسي في دفاعه عن الأندلس: عيسى بن دينار (٨٢٧)، وابن حبيب (٨٥٢)، والعتبي (٨٦٩) وابن مزين (٨٧٢) والقطاني (٨٨٢)، وقد تابع هذه المدرسة وسار على نهجها، تلاميذها: ابن لبانة (٩٢٦)، وابن عيمان (٩٤١)، وابن اصبع (٩٥١) وأحمد بن سعيد (٩٦١) وأهمهم ابن عبد البر (١٠٧٠)، وحاول «بقي بن مخلد» (٨٨١) عبثاً عند عودته من المشرق، أن يدخل مذهب الشافعية. ويعد ابن حزم تفسير ابن مخلد أفضل من تفسير الطبري. ولكن مذهب الظاهرية أدخله ابن قاسم، وقواه المنذر بن سعيد البلوطي، قبل أن يشهره ابن حزم، الذي يعد العلم الأكبر في كل نواحي التأليف الأدبي، في النصف الأول من القرن ١١ والذي

يعد كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل المعروف بمجرد «الفصل» أكبر مصدر لمعرفة الفكر الديني في الإسلام، وغيره من الأديان المعروفة إذ ذاك، وعرف الأندلسيون مذهب المعتزلة وعرفوا الفلسفة، تدل على ذلك كتب ابن مرة (٩٣١) ومدرسته، وذاعت علوم اللغة ولكن وفود «أبي علي القالي» (٩٦٧) من العراق أنعش هذه الدراسات وكتابه «الأمالي» صورة لدروسه في جامع قرطبة، كما ألف كتاب «البارع» وكتاب «النوادر» وكان من معاصريه: الرياحي (٩٦٨) وابن عاصم (٩٩٢) وابن القوطية الذي درس النحو، وألف ابن سيده (١٠٦٦) كتابه الأشهر «المخصص». وألف الأندلسيون في التاريخ خالطين بين التاريخ والأساطير أول الأمر، كما فعل ابن حبيب. ثم ألفوا حوليات على نسق كتاب الطبري الذي أكمله ابن سعد (٩٨٠) بحوليات حديثة.

**التاريخ:**

ولكن أكثرهم كان يهتم بتاريخ إسبانيا، ويتبع التسلسل حسب الملوك والأمراء. وذاعت أيضاً كتب التراجم: تراجم للقضاة والأطباء والكتاب. وأهم نوع كان الذي يؤرخ منذ الفتح إلى عصر المؤلف، مثلما نجد عند الرازي (٩٥٥)، وابنه عيسى، الذي نقل عنه ابن القوطية في «أخبار مجموعة»، كما نقل عنه ابن حيان في كتاب المقتبس من أنباء الأندلس المعروف بمجرد «المقتبس»، وأهم مؤلف تاريخي في هذه الفترة هو كتاب «طبقات الأمم» لسعيد الطليطلي (١٠٦٩) الذي ترجم فيه لليونان والرومان أيضاً.

**الجغرافيا:**

وأهم من ألفوا في الجغرافيا إلى جانب الرازي – الذي وصف إسبانيا وصفاً بارعاً (عثر على مخطوطه أخيراً) – هو أبو عبيد البكري (١٠٩٤). وفي هذا العصر، ازدهر التأليف في الرياضة والفلك، وبتأثير العالم مسلمة المجريطي (١٠٠٧)، وازدهر الطب وعلوم النبات في عهد عبد الرحمن

الثالث، ومن هؤلاء المؤلفين – أمثال الزهراوي (١٠١٣) – من عرفته أوروبا في القرون الوسطى، ولقد تأخر ظهور التأليف الأدبي، ويمكن أن نعد «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٩٤٠) أول مؤلف في الأدب الأندلسي، وإن كانت محتوياته مشرقية، ولكن هذا النوع من التأليف لم يذع، ولم يجد له في العصور القريبة منه من يقلده. وجاء قرطبة في إمارة عبد الرحمن الثاني، المغني العراقي «زرياب» (٨٥٧)، فصبغ المجتمع كله بصبغة بغدادية، إذ كانت بغداد المثل المحتذى، وأدخل زرياب في البلاط وفي الحياة العامة تقاليد بغدادية عاشت طويلاً من بعده. ومنذ القرن التاسع، يمكن أن نقول أن العنصر العربي والعنصر الإسباني، الذين عاشا طويلاً يجهل كل منهما الآخر، قد امتزجا أخيراً فأوجدوا الفرصة لأدب عربي جديد كل الجدة، ويتجلى ذلك في شعرهم الجديد: الموشحات.

## اللغة في العهدين:

كانت حالة اللغة في عصر الولاة، بين العرب ومستعربي البربر، كما كانت في عهد الأمويين في الشرق، وفي زمن الدولة الأموية الأندلسية كانت تنهج نهج الدولة العباسية وتحاكيها وتنافسها في كل شيء، وفاقتها في البناء، وبلغت حضارتها ورقيها في العلوم والآداب غاية المجد زمن الخليفتين الناصر والمستنصر ابنه، وزمن الحاجب المنصور الذي استبد بأمر الدولة بعدهما، ولما انتشرت الفتن في آخر عهد الأمويين انقسمت البلاد إلى عدة ممالك مستقلة، مدة نصف قرن، فقام في كل صقع منبر وأمير، حتى قال فيها الشاعر:

**مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتمد فيـــــــها ومعتضد**
**ألقاب مملكة في غير موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخًا صورة الأسد**

وقال شاعر آخر:

**وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة منها أمير المؤمنين ومنبر**

لم تكن حال الحضارة والعلم والأدب فيها أقل منها زمن الدولة الأموية، إلا أنها تقهقرت عندما صارت الأندلس ولاية تابعة للملوك البربر في مراكش من المرابطين والموحدين، وانتعشت قليلًا في زمن بني الأحمر، آخر دولة إسلامية في الأندلس.

**الشعر الأندلسي**:

نقل العرب إلى الأندلس أخلاقهم وعاداتهم وأدبهم وشعرهم، فاستخدموا الشعر فيما كانوا يستخدمونه في عصر بني أمية بالمشرق؛ من أنواع الحماسة والحض على الجهاد والدعوة إلى العصبية وإثارة الفتن. ولما خمدت الفتن وقرَّ الملك في بيت عبد الرحمن، هبَّ الشعراء ينحون مناحي الشعر التي فشت في الإسلام، فصار الشعر صناعة فئة من المتأدبين يتكسَّبون به بمدح الخلفاء والأمراء والقواد والانقطاع إليهم، وشجعهم هؤلاء أمويهم وعلويهم وبربرهم ببذل العطاء لهم وتقريب منازلهم منهم. فاتخذوهم بطانة وندماء، وأعوانًا ووزراء، إذ لم تكن صناعة الشعر مزرية بعظماء الناس هناك، بل كانت حلية كل متعلم، فقلما عجز عن قول الشعر إنسان منهم، بل نظمه كثيرون منهم حتى الأميون، ولم يأنف من نظمه الخلفاء والوزراء والأمراء والفقهاء، فأولع به كل الطبقات حتى النساء، ومنهن من بارين الرجال فيه.

ولا نسمع بفقيه أو فيلسوف أو طبيب أو رياضي أو مؤرخ إلا نراه شاعرًا بليغًا له مطوَّلات ومقطَّعات شعرية، في أغراض مختلفة؛ وذلك لجمال أرضهم وبيئتهم وطيب عيشهم وميلهم الفطري إلى الشعر؛ لأن أكثرهم من عناصر عربية.

وإذا لم يشتهر فيهم أمثال بشار وأبي نواس والمتنبي وأبي تمام والبحتري، فذاك لبعدهم عن المشرق مهد العربية وميدان التنافس العام فيها، ولقد نظم شعراء الأندلس في جميع الأنواع الشعرية والأغراض حتى

الخمريات والمجون والموشحات والأزجال، ولكنهم فاقوا العباسيين في وصف مناظر الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة. وأشهر هؤلاء أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس، ثم نظموا قواعد العلم شعرًا، وبعض الحوادث التاريخية، وقصروا عن المشاركة في الحِكَم التي تسير سير الأمثال، وكان شعرهم في الغزل غاية في الرقة، والخيال الشعري الجميل مادة معانيهم، وقلما أتوا في شعرهم بقضايا عقلية وأحكام فلسفية.

ولا نعرف إلا القليل عن الشعر الأندلسي في القرون الأولى للفتح، ولضياع المجموعات الأولى من الشعر، مثل كتاب الحدائق لابن فرج الجياني، يصعب علينا درس هذه الفترة. يقال أن سفير عبد الرحمن الثاني، يحيى الغزال قد كتب شعراً ملحمياً مستعملاً الأرجوزة، ويقال أن لتمام بن أمير، ولابن عبد ربه شعراً. ولكن الموشح في القرن ٩ هو الشكل الأندلسي الأول في الشعر، وكان أول أمره مقطعات منوعة القافية، وينتهي بخارجة في لغة رومانسية غير عربية، يمثل ازدواج اللغة في الشعر العربي لأول مرة، كما يمثل ازدواج الذوقين الفنيين، العربي والإسباني، وقد ظل الموشح غنائياً عربياً فصيحاً ولكن تنوعت فيه القافية، وزيدت الخارجة. ولما كان اكتشاف المخطوطات في مجموعات الموشحات يأتي كل يوم بجديد، فإنه من الصعب أن ندرس الموشح درساً كاملاً. وبالرغم من ذيوعها، واستساغة بعض نقاد المشرق لها، فقد ظلت نوعاً ثانوياً لشعبيتها إلى جانب الأشكال العربية القديمة التي تنوعت قليلاً في بلاط خلفاء المغرب. وأهمية الموشحات تزداد عند المستشرقين اليوم، بسبب علاقة الشعر الشعبي الإسباني بأوليات الشعر الأوروبي عند الشعراء الجوالين «التروبادور».

وأهم من أثر في المغرب من شعراء المشرق، هو المتنبي الذي شرح ديوان ثلاثة من أعلامهم: الشنتمري، الأفليلي، وابن سيده. وقد احتذاه في تنويع وإجادة، شعراء بلاط قرطبة. وظل الشعر الرسمي حتى القرن ١١ مقلداً

ثم اتخذ لنفسه شخصية قوية جديدة. ولاشك أن خلفاء بني أمية شجعوا الأدب وعملوا على جمع الكتب: «مكتبة الحكم الثاني»، ولجزيل عطائهم ظهرت طائفة من شعراء البلاط، أهمهم في هذه الفترة: «المصحفي» (٩٨٢). ولكن الشعر الأندلسي الحضري يبدأ بابن دراج القسطلي (١٠٣٠)، في عهد المنصور الذي أحرق مكتبة الحكم، خوفاً على الدين من العلم والفلسفة. ويعد البغدادي والرمادي من شعراء هذا النوع في هذه الفترة.

وتزعم ابن شهيد(١٠٣٥) حركة شعراء من أصل ارستقراطي، قاومت الموشح لشعبيته وتعصبت للشعر الفصيح وللعربية الأصيلة. وتظهر أفكاره تلك في كتابه «التوابع والزوابع». ويعد ابن حزم في تحليله للشعر العذري في «طوق الحمامة» من تلاميذ هذه المدرسة، وإن تكن شاعريته أقل درجة. ولم يؤثر سقوط الخلافة وقيام ملوك الطوائف في الشعر، بل أنه على العكس وصل إلى ذروته، وفي هذا العصر ازدهرت حركة جمع الدواوين والمختارات الشعرية ووصلتنا دراسة أيضاً عن الشعر في القرن الحادي عشر، نشرها المستشرق بيرس أخيراً وعلق عليها بدراسة وافية للشعر في القرن الحادي عشر، وإذا كان كل بلاط تخصص في حماية نوع من المعرفة، فالكل حمى الشعر، وعالج الشعر الكلاسيكي الجديد كل الموضوعات، وإن يكن الوصف، وصف الطبيعة والحيوان والإنسان، أكثر موضوعاته انتشاراً.

وشهر في قرطبة: ابن زيدون (١٠٧٠) الذي تغنى بحبه لولادة بنت المستكفي (١٠٩٥) التي كانت حياتها شعراً وألهمت شعراء إسبانيا، بل شعراء صقلية أيضاً، مثل ابن حمديس (١١٣٢). وفي بلاط المعتصم ظهر الشاعر ابن شرف (١١٣٩) وفي غرناطة شهر أبو إسحق الإلبيري (١٠٦٩)، وابن عبدون (١١٣٤). وفي عصر المرابطين الذي يبدو أنه جمع شمل الدولة الممزقة، خمد الشعر، فقد كان أكثر اهتمامهم بالدين. وفي بلنسية وحدها نجد الشعر المتحرر الذي شاع أيام ملوك الطوائف، بينما بسط سائر الملوك

رعايتهم على شعر مديح تقليدي. وفي بلنسية نجد شعر الطبيعة والغزل عند ابن خفاجة (١١٣٨)، وشعر الطبيعة والخمر عند ابن زقاق (١١٣٥).

**أيام الموحدين:**

أما أيام الموحدين، فظهر ابن سهل (١٢٥١) والرصافي (١١٧٧). وإلى سقوط غرناطة لم ينبغ إلا لسان الدين بن الخطيب (١٣٧٤). وكان آخرهم ابن زمرك (١٣٩٣) وكلاهما لا يعد من الطبقة الأولى في الشعراء. ولما شعر الأدباء بأفول نجم الشعر في الأندلس أخذوا في جمع تراثه: فابن بسام (١١٤٧) يؤلف «الذخيرة» والفتح بن خاقان يؤلف «قلائد العقيان»، وابن سعيد (١٢٧٤) يستخلص من كتابه «المغرب» «رياض المبرزين» ليؤرخ الشعر في الأندلس. وإلى أن انتهى (الجزر)، وخرج العرب من الأندلس، نجد من يحمل لواء الموشح مثل الأعمى الطليلي (١١٢٦)، وابن بقي (١١٤٥)، ويقود لواء الزجل ويصل به القمم الفنية الرائعة: الشاعر ابن قزمان (١١٥٩).

وقد انتعش الزجل بفضله، وألف فيه كثير من شعراء الفترة الأخيرة: أما النثر، الذي بدأ أندلسيا بابن شهيد وابن حزم، فإنه سرعان ما مال نحو تقليد المشرق، ويدل على ذلك: «سراج الملوك» للطرطوشي (١١٢٦) وموسوعة البلوي (١٢٠٧) وطائفة المقامات التي قلدت الحريري، مثل مقامات الشريشي (١٢٢٢). وشجع الموحدون التأليف الديني والعلمي: ففي العلوم الدينية ألف ابن عاصم التحفة (١٤٢٦)، كما ألف في اللغة البطليوسي (١١٨٥)، ولكن يلاحظ أن فريقاً من العلماء، أمثال ابن مالك (١٢٧٤)، وأبو حيان (١٣٤٤)، آثروا المشرق إذ نزحوا إليه بمؤلفاتهم. وذاعت كتب السيرة بعد القاضي عياض، فقد ألف في السير: ابن بشكوال، والضبي، وابن الأبار، وابن زبير، وألف في التاريخ ابن سعيد المغربي كتابه المعروف «المغرب»، الذي اعتمد على كثير مما سبق في الميدان. وبرز في الجغرافيا: الإدريسي، وفي تأليف

كتب الرحلات: ابن حامد الغرناطي (١١٦٩)، وابن جبير (١٢١٧) والعبدري في القرن ١٣، وازدهرت في القرنين ١٢ و١٣ العلوم، كالرياضة، والفلك، والصيدلة، وعلم النبات، والطب، وقد أثرت العربية في لغة ش إسبانيا، وتغلغلت في لغاتهم الدارجة، وأوجدت لهجات خاصة، لها أدب شعبي خاص، يدرس لأهمية أثره في شعر أوروبا في القرون الوسطى، ولدوره في شعر النهضة.

والشعر الأندلسي له طابع خاص في الخصائص لاسيما في الفنون الشعرية الذي امتاز بالوصف ورثاء الممالك الزائلة والاستنجاد بالرسول وكبار الصحابة ونظم العلوم والفنون والشعر الفلسفي، كما امتاز معانيه وأفكاره بالوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد والتلميح إلى الوقائع التاريخية ولاسيما في رثاء الممالك الزائلة، أما ألفاظه وعباراته فقد كانت واضحة وسهلة والرقة والعذوبة وتجنب الغريب من الألفاظ واهتم بالصنعة اللفظية، وقد انتزع تصويره وخياله من البيئة الأندلسية الغنية بمظاهر الجمال الطبيعية وتزاحم الصور، أمابالنسبة للأوزان والقوافي فقد التزموا بوحدة الأوزان والقوافي بدايةً، ثم ابتدعواأوزانا جديدة لانتشار الغناء في مجالسهم ونوعوا في القوافي ومن ذلك الموشحات، من أشهر شعراء العصر الأندلسي هم أحمد عبد ربه، ابن برد، ابن هانئ الأندلسي وابن سهل الأندلسي الذي قال قصيدة المشهورة بالرداء الأخضر:

**الأرض قد لبست رداءًأخضرا والطل ينثر في رباها جـــوهرا**
**هاجت فخلتُ الزهر كافورا بها وحسبتُ فيها الترب مسكا أذفرا**
**وكأن سوسنها يصافح وردها ثغر يقبل منه خداً أحمـــــرا**
**والنهر ما بين الرياض تخاله سيفا تعلق فـــي نجادأخضرا**

**مرحلة عصر الولاة:**

ويبدأ بالفتح ودخول الإسلام لهذه البلاد وبعد تعيين أول والي عليها من قبل بني أمية في المشرق، وبطبيعة الحال كان أدباء تلك الفترة من الوافدين المشارقة، لذلك اتسم شعر تلك الفترة بأنه مشرقي خالص بمعنى أن خصائصه هي خصائص الشعر المشرقي من حيث الموضوعات والأسلوب، فالموضوعات تقليدية من مديح ورثاء وهجاء...الخ والأسلوب- كذلك- يسير على الاتجاه المشرقي من لغة وصور وبناء للقصيدة. وكان من أبرز شعراء تلك الفترة: أبو الأجرب جعونة بن الصمة، وأبو الخطار حسام بن ضرار، وإن لم يصلنا غير القليل من أشعارهما.

**عصر بني امية:**

ويبدأ بتولية عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) الحكم، وبناء مجد لبني أمية على أنقاض مجدهم الضائع في المشرق على يد العباسيين، وفي هذه الحقبة ظهر لنا أول جيل من الأندلسيين العرب، وإذا نظرنا لحالة الأدب لوجدناه متطبعا بالطابع المشرقي، فالشعراء يسيرون فيه على تقاليد المدرسة المشرقية المحافظة، غير ان هناك سمات ثلاث تميز شعراء تلك الفترة عن شعراء المشرق وهذه السمات، هي:

١-التجديد الموضوعي، بمعنى طرق موضوعات جديدة أو موضوعات قديمة ولكن بطريقة جديدة، كمعالجة الشاعر أبي المخشي للعمى، إذا أصيب به بعد أن كان مبصرا فأخذ يصور حاله وحاله زوجه المتأثرة بما أصابه.

٢-التركيز العاطفي: وهو تركيز الشاعر على عواطفه ونقلها عبر نصه الشعري.

٣- التجويد الفني: ويعني ايصال المعنى بطريقة الإيحاء.

ومن أبرز شعراء تلك الفترة: عبد الرحمن الداخل، وأبو المخشي، وحسانة التميمية، والحكم بن هشام. ولا يفوتني أن أذكر لك بانه في هذا العصر ظهرت لنا الموشحات كخطوة جديدة جريئة في عالم الشعر العربي.وقد مهد هذا الفن لظهور موضوعات جديدة نحو الخمريات، والغزل الشاذ، فالموشحات كما نعلم كانت مرتبطة إلى حد كبير بالغناء واللهو.وبذلك انتقل بعض الشعراء إلى مرحلة التجديد الشعري من طرق موضوعات جديدة نحو الخمريات، ووصف الطبيعة، والزهد كرد فعل لظاهرة تفشي اللهو والمجونيات. اما الأسلوب فقد حدث فيه تجديد كذلك من استعمال للأوزان القصيرة، ومن سهولة اللغة الشعرية، ومن استمداد الصور من الحياة الحضارية..إلخ.

**عصر ملوك الطوائف:**

ويبدأ من انتهاء حكم بني أمية أثر الفتنة القرطبية التي ألحقت الدمار بكل شيء في قرطبة رمز العلم والمجد انذاك، وقد تميز هذا العصر بروح التنافس القوي بين ملوكه فأغلبهم كان محبا للعلم وللادب، بل منهم من كان يقرض الشعر كالمعتمد بن عباد ملك اشبيلية، وكان هؤلاءالملوك يزجلون العطايا للشعراء مما ساهم في تطور الشعر في تلك الفترة. وبسبب الاستقرار المادي والحضاري والعلمي وجدنا بعض الشعراء يعود مجددا للأسلوب الشعري القديم مع ربطه بالحضر، فظهر لنا أصحاب الاتجاه الوسطي أو المحافظ الجديد، وكان منهم ابن زيدون، وابن خفاجة، وغيرهما كثر، وهذا أبرز ملامح الأدب الأندلسي وأبرز اتجاهاته الادبية.

**الموشحات**:

وهي شكلٌ من أشكال الشعر ابتكره أهل الأندلس لرغبتهم في التجّديد والخروج على نظام القصيدة التقليديّة، بحيث ينسجم هذا الأدب الجديد مع طبيعة حياتهم الاجتماعية في تلك المرحلة، وتميز هذا النوع من الأدب عن غيره بعدة أمور منها: خصوصية البناء، وتميز اللغة، واختلاف الإيقاع،

والارتباط الكبير بالموسيقى والغناء، والالتزام بقواعد معينة؛ كاستخدامه للغة الدارجة أو اللغة الأعجميّة، وقد لاقى هذا الأدب اهتماماً كبيراً من الملوك والأمراء؛ مما كان له الأثر الأكبر في انتشاره الواسع خصوصاً بعهد المرابطين.

ويصف المؤرخون الموشحات بأنّها شعبيّة؛ لأنّها لون شعريّ نشأ في الأوساط الشعبيّة من أجل إرضاء رغبة الناس، ولأنّ البعض من نصوص هذا الفن نُظمت باللغة العاميّة الشعبيّة، مما جعل الشعراء الكبار في بداية نشأته يمتنعون عن التأليف على طريقته؛ لأنهم اعتبروا هذا التأليف بمنزلة عامة الناس، ولأنّ الموشح حسب رأيهم- أقل مستوى من الشعر التقليدي، ومع تطوّر الزمن تغيّرت هذه النظرة إلى الموشح، حيث أولوا له أهميةً كبيرةً، وبدأوا ينظمون شعرهم على منواله.

تعريف الموشحات تُعَرّفْ الموشحات في معناها اللغويّ: "أنّها كلام منظوم على وزن مخصوص"، وقد اشتُقّ اسمها من الوشاح؛ وهو رداء يمتاز بزركشته، وتزيينه بالزخارف والجواهر، وكان المراد من هذه التسميّة التغييرات التي طرأت على القصيدة العربيّة، أمّا التعريفات العديدة التي جاء بها الأدباء والباحثون، فتتلخص بأنّ الموشحات فنٌّ من فنون الشعر العربي المستحدّثة يختلف عن القصيدة التقليدية في قوافيه المتعددة، وأوزانه المتنوعة.

**نشأة الموشحات:**

يُعدّ الموشح ظاهرة من الظواهر الأدبية القليلة في الأدب العربي، فبعد الانتشار الواسع للشعر التقليدي في بلاد الأندلس بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديّين، والذي تميز بالتقيّد بالوزن والقافيّة ظهر جيلٌ جديدٌ من الشعراء، ونشأ وترعرع في الأندلس بين الطبيعة ومجالس الغناء والطرب ومظاهر الترف؛ فأثّرت هذه الأجواء المتحرّرة في شعره وعطائه، وأصبحت القصيدة الواحدة تظهر في مجالس الطرب غير ملتزمة ببحور الشعر وأوزانه

التقليديّة، حيث تنقّل الشعراء بين قوافي الشعر وبحوره وأوزانه، مما أدّى إلى تداخُل الغناء مع هذا اللون الجديد الذي تميّز باختلافه عن القصيدة التقليدية، من خلال اعتماده على أكثر من قافية ووزن وبحر عروضي.

إضافة إلى ما سبق؛ فإنّ الموشح نشأ أيضاً نتيجة وجود ظاهرة اجتماعيّة تجسّدت في الاختلاط المباشر بين العرب والإسبان، ونتج عن هذا الاحتكاك امتزاج لغويّ، تمثّل في معرفة الشعب الأندلسي للعاميّة العربيّة، واللاتينية، ونتيجة هذه الثنائيّة اللغويّة نشأت الموشحات التي كانت تُنظّم بالعربيّة الفصحى، باستثناء الفقرة الأخيرة منها، وكانت تسمى "الخرجة"، حيث كانت تنظم بالعاميّة الأندلسيّة، وهي عاميّة العربيّة التي كانت تستخدم ألفاظاً من العاميّة اللاتينية.

وأشهر أصحاب الموشحات لسان الدين الخطيب وغيره، وقد روي لابن المعتز من المشارقة موشح يمتاز بتماسك ديباجته ولا يقل رقة عن موشحات الأندلسيين، ونظموا الموشح باللغة العامية فلقِّب بالزجل، ثم شاع هذان النوعان في المشرق فحاكوا الأندلسيين فيهما حتى وقتنا هذا، ونبغ في الأندلس شعراء وشاعرات عديدون لا يحصون، أشهر مشهوريهم: ابن هاني –وقد سبق ذكره– وابن عبد ربه، وابن خفاجة، وابن حمديس، وولَّادة، وابن زيدون...إلخ، وأخيرًا ظهر الزجل الذي ينبع عندنا اليوم، وقد صار عاميًّا صرفًا في لهجته، وقد خصصنا هذا الفن بكتاب يظهر إن شاء الله.

**النثر:**

كانت مناصب الكتابة في عصر الولاة وأول عصر بني أمية كما كانت عليه في المشرق يتولاها الأمير مليًا على كاتبه، أو الكاتب برأي الأمير. وإذا علت مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة سمِّي حاجبًا، وهو أشرف ألقاب الدولة. أما اسم الوزارة فكان يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم، ثم صار لقب الوزير الذي ينوب عن الملك في سياسة

الدولة ويلقَّب بذي الوزارتين، يكون غالبًا من رجال الأدب، وكذلك كانت حالة الكتابة من جزالة اللفظ وفخامة المعنى وخلوها من السجع، إلا نادرًا، ثم حاكوا المشارقة في نظام الدواوين ورسوم الكتابات من تمييز أقسامها وتنويع بدئها وختامها، وتسجيع عباراتها، كطريقة ابن العميد في السجع القصير، واستمداد المعاني من الخيال، وحل المنظوم، ومن القرآن والحديث، وتضمين الأمثال، والتلميح إلى حوادث التاريخ، وكتبوا في كل الأغراض التي طرقها كتَّاب المشرق، ولكن بلاغتهم لم تنحط في آخر أمرهم كما انحطت في مصر والشام، في العصور التركية، لقلة طروء العناصر الأعجمية عليهم ولتأصُّل عادة الاشتغال بالعلم فيهم.

**كتَّابهم:** ابن شهيد أبلغ كتابهم، له في الوصف والمداعبات رسائل بديعة، وابن زيدون، والفتح بن خاقان.

**التدوين والتصنيف:** ابتدأ التدوين والتصنيف في أواخر عصر الأمويين وصدر العباسيين، أما الأندلس في ذلك الزمان فكانت مضطربة، فلما وطد عبد الرحمن أركان ملكه ومهَّد طريق الحضارة والرخاء والأمن لأهلها، هبُّوا يرحلون إلى المشرق لأداء فريضة الحج واقتباس العلوم، فتابعوا رحلاتهم إلى الشرق برًّا وبحرًا، ونقلوا إلى بلادهم علوم اللسان والدين؛ لأن الأندلسيين كانوا أشد أهل الأرض حبًّا للعلم، وتفانيًا في تحصيله وتوقيرًا لأهله، وساعدهم على ذلك بنو أمية وخلفاؤهم ببذل الأموال العظيمة في جمع الكتب ومكافأة العلماء، وأحلوهم أرفع منزلة، وسمعوا أمرهم وخضعوا لنهيهم، وأخصهم عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر «الحَكَم»، وقد جمع الحَكَم هذا في مكتبته بقصر قرطبة مئات الألوف من الكتب، وكذلك كان أكثر خلفاء بني أمية، وأعيان قرطبة، فما انقضى القرن الرابع حتى نبغ ألوف من العلماء، فضارعت الأندلس المشرق وفاقته في بعض العلوم، ولم يقصر ملوك الطوائف عن الأمويين فآزروا العلم وقرَّبوا العلماء، وكان من ملوكهم الأدباء

أيضًا مثل المظفر أحد بني الأفطس صاحب بطليموس، صاحب التاريخ المظفري في ٥٠ مجلدًا، وفي عصر المرابطين هدأت حركة العلم قليلًا؛ لأنهم اضطهدوا أصحاب الآراء والنِحَل المذهبية، حتى تساهل الموحدون في أمر مطاردة الفلسفة وعلومها، فنبغ من الحكماء والأطباء والكيمائيين جماعة أشهرهم: ابن رشد، والباجي، وابن زهر، ثم قلَّ الاختصاص في العلوم، وكانت تنتعش أحيانًا الحركة العلمية ثم ترقد، حتى أباد الإسبان العرب وعفوا آثارهم وأحرقوا كتبهم، فلم يسلم منها إلا ما نُقل قبل الجلاء أو جُهِل مكانه.

**تأثير الأندلس:** للأندلس أبلغ أثر عربي في الغرب، فكلية قرطبة كانت تضم بين جدرانها اثني عشر ألفًا من الطلاب، عرب وغير عرب، والفن العربي في البناء تجلى بأبهى مظاهره في الأندلس من قصر الحمراء إلى جامع قرطبة، وجعلوا للغة العرب سيادة هائلة في الغرب فاندحرت أمامها جميع اللغات، حتى طلب رؤساء الدين المسيحيون من البابا أن يترجموا كتب الطقوس الدينية إلى العربية، وأدخلوا في لغات الغرب القافية في الشعر التي لم يعرفها الغربيون قبل العرب، ثم طوروا شعرهم إلى نوع الموشحات، ووأخذ الطرب عن العرب من الموسيقى الكمنجة «الرَّباب» والفليت «الشبَّابة» عدا الألفاظ التي ملأت لغات الأوروبيين. أما العلوم وفروعها فحدِّث عنها ولا حرج، فقد ظلت كتب العرب مصدرًا لها، ولا يزال حتى اليوم المستشرقون يخرجونها كل عام.

## شعراء الأندلس:

شعراء الأندلس فئتان: فئة ظلت محافظة في شعرها على النمط الشرقي فلم تخرج على التقليد، فقالت قصيدتها على الطراز الذي ألفه الشعراء المشارقة في التفكير والتصوير، فلم تكن أفكارهم غير شرقية. وعندما قال الصاحب بن عباد كلمته — حين اطَّلع على العقد الفريد ولم يجد فيه ما كان

ينتظر من أدبنا عبر البحار: هذه بضاعتنا ردت إلينا. جاءت تلك الكلمة في محلها. ولكن الفئة الثانية خرجت على العروضي، فالعرب الأندلسيون في فجر هجرتهم كانوا مقلِّدين للمشرق في كل شيء، حتى الألقاب التي كان يتخذها ملوكهم، ولما طال الزمان وتأثروا بمحيطهم الجديد خططوا قصائدهم على النظام المعماري الغربي، فصارت قصائدهم غير ذات زوايا أربع كبيوتنا الشرقية، ولما كان هذا الكتاب معمولًا — كما قلنا في التوطئة — ليكون دليلًا للقارئ في دنيا ثقافتنا الواسعة، اكتفينا بما قلنا حتى لا نخرج عن تخطيطنا؛ ولهذا نقول إن شعراء الأندلس ليسوا كلهم ممن وشَّحوا قصائدهم فنوعوا قوافيها ووحدوا موضوعها، ولعل أول المحافظين كان ابن عبد ربه الذي لقِّب بمليح الأندلس.

**ابن عبد ربه:**

هو مليح حقًّا، وقد كان المتنبي محقًّا حين سمع شعره وأثنى عليه؛ فلهذا الأديب شعر متماسك خالٍ من تلك الميوعة التي نجدها في شعر المتوسطين من شعر ذلك الشطر من الإمبراطورية العربية، فليس في شعر الأندلسيين الذين قالوا الموشحات شعر يماشي شعر المشارقة غير موشح لسان الدين الخطيب: جادك الغيث. والموشح الآخر المنسوب لابن المعتز، فابن عبد ربه، وهو الشاعر المجيد الذي لم يتخلَّ عن شرقيته، له شعر ذو حظ كبير من الخيال واعتماده على الاستعارة والتشبيه، والذي رأيته هو أن خياله أقوى من عاطفته، وُلد هذا الشاعر بقرطبة، وانكبَّ على المطالعة، ثم لما اشتد ساعده ألَّف كتابه «العقد الفريد» الذي زين به جِيد حسناء يعرب.

**ابن زيدون وولَّادة:**

لا تغرك هذه الواو والنون، فالعرب قالوا هكذا، وابن زيدون من مواليد قرطبة وهو عربي أصيل من بني مخزوم، وُهِب مَلَكة شعرية رائعة فقال الشعر يقطر رواء وماوية، وقال أشهر قصائده كما أوحاها إليه قلبه، فدارت

على الألسن وظلت حتى يومنا هذا في دورانها، قالها حين حِيل بينه وبين حبيبته ولادة بنت المستكفي، وهي شاعرة من طرازه، وقد كانت سافرة في ذلك الزمان، رغم أنها بنت الخليفة المستكفي، وقد أراد ابن عبدوس أن يشاركه في حبها ولكنها لم تمِلْ إليه، ولمَّا كان هذا من المقربين من أولياء الأمر دسَّ الدسائس، فنجحت وشايته، فسُجن ابن زيدون، ولما عجز عن استرضاء ابن جَهور صاحب العرش، فر من سجنه ولجأ إلى المعتمد بن عباد، واشتهر ابن زيدون بالرسالة التهكمية التي وجَّهها إلى ابن عبدوس، وهي من طراز رسالة التربيع والتدوير التي كتبها الجاحظ. والرسالة تشبه اليوم ما عُرف «بطبق الأصل»؛ إذ كتبها عن لسان ولادة صاحبة الندوة الأدبية التي تقول في وصف نفسها:

**أنا والله أصلـــــــــــح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها**

**وأمكن عاشقي من صحن خدي وأمنح قبلتي من يشتهيها**

وقد كانت تكره ابن عبدوس ولا تخشى أن تتندر عليه، وقد مرت عليه مرة وهو جالس أمام بركته الآسنة، فقالت له متمثلة:

**أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر**

وقد كانت ولادة شاعرة حرة التفكير، كأنها من نساء اليوم المتطرفات، وإذا لم تنظم الروائع فحسبها أن حبها أوحى إلى ابن زيدون قصيدته الباقية: أضحى التنائي بديلًا من تدانينا. وسنقرؤها إن شاء الله في النصوص المختارة، وهي جزء تابع لهذا الموجز.

**ابن عمار:**

وُلد في بيت خامل، تأدَّب في قرطبة مدينة الأدب والعلم، ثم صار معلمًا للمعتمد ابن عباد ونجيَّه وسميره ووزيره، وابن عمار يجاري ابن زيدون، وأغلب قصائده في مدح المعتضد وابن المعتمد.

**شعره:** يمتاز شعر ابن عمار بصوره كما امتاز شعر ابن زيدون بعاطفته الحامية الوطيس، ومن قول ابن عمار في مدح سيده:

**أثمرت رمحك من رءوس ملوكهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا**

**وصبغت درعك من دماء كماتهم لما علمت الحسن يلبس أحمرا**

أما نهاية ابن عمار فكانت بشعة؛ تآمر على مولاه المعتمد وعصاه، فسجنه المعتمد ولم يعفُ عنه رغم القصائد التي قالها في طلب العفو، بل قتله بيده في سجنه وأمر بدفنه.

**ابن حمديس الصقلبي:**

شاعر مبدع في الصور والتخيل، تعمَّق في وصف الطبيعة والعمران، وجد خياله مجالًا واسعًا، وكان له في محيطه مرعى خصيب، جنائن وارفة الظلال وأنهار تغني للغصون فترقص، بدائع وطرائف راح يصوِّرها ابن حمديس بقلمه، فجاءت لوحات طريفة نادرة، وقد مشى على خطى البحتري في وصف القصور والبرك، وسعى وراء التشابيه والاستعارات يتصيدها حتى ظهرت الصنعة وكثرت، ولم يهمل ابن حمديس شعر المدح فأغرق فيه، وعاش ميسورًا.

**ابن خفاجة:**

وُلد بجزيرة شقْر، وهو كابن حمديس في أغراضه الشعرية، حاكاه في صوره وإحساسه، وآفة الشعراء سيرهم خلف بعضهم كالقوافل على الطرق المعبَّدة، لكن ابن خفاجة لم يتكسَّب بشعره إلا نادرًا، فقاله في الموضوعات الأخرى.

**ابن سعيد:**

شاعر أندلسي، هاجر إلى مصر فأصابه داء الحنين إلى وطنه، فقال شعرًا جيدًا في ذلك، متذكرًا غرناطة التي ولد فيها.

**لسان الدين الخطيب:**

ولد بلُوشة، وتضلع من جميع علوم زمان حتى صار فيها حجَّة، ولما اجتمع أشده خلف أباه ووزِّر لبني الأحمر، وظل ينعم في ظل العز الوارف، حتى خلع مولاه فاعتقل وعذب، واتهم بالإلحاد والزندقة عملًا بالكلمة المشهورة: من تمنطق فقد تزندق. ثم كانت الفتوى وإباحة دمه، فهاجموا السجن فخنقوه وطرحوا جثته فدفن، ثم أُخرج من لحده وأُحرق، وكان لسان الدين شاعرًا مجيدًا وكاتبًا وخطيبًا وفيلسوفًا مشاركًا في جميع علوم زمانه، وله مؤلفات، منها: كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة، وكتاب الإشارة إلى آداب الوزارة، وبستان الدول.

**تآليفه:** وقد أوصل المقري تآليف لسان الدين الخطيب إلى الستين، وأشهر موشح اتبع حتى قلده المشارقة والمغاربة، هو موشح لسان الدين الذي مطلعه:

**جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس**

وله غيره موشحات كثيرة وشعر وافر.

**المعتمد بن عباد:**

سيرة حياته: أبوه المعتضد العبادي ملك إشبيلية، مات أخوه الذي كان صاحب الحق في ميراث العرش، فانتهى الأمر إليه. اتخذ الشاعر ابن عمار وزيرًا لدولته، ثم قتله بيده كما مرَّ، واستولى على قرطبة، وبلغ مرسية، ولما اتسعت رقعة ملكه وخاف عليه من ملك قشتالة ألفونس، استنجد بابن تاشفين ملك مراكش فلبَّاه. وأخيرًا انقلب عليه وأشعل نار الفتن، فاستولى على قرطبة وإشبيلية وأسر المعتمد ونفاه وأهله إلى أغمات، وهناك مات بعد عذاب شديد وفقر ليس فوقه فقر، وهذا الملك هو أحد الذين صوَّرهم أحد شعراء عصرهم حين قال:

**وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة منها أمير المؤمنين ومنبر**

إنه شاعر، وقد وصف لنا سوء مصيره في شعره الذي هو أبلغ معبِّر عن آلامه ونكبته الفظيعة. قال يصف موقفه من العيد في أغمات:

**فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا فجاءك العيد في أغمات مأسورا**
**ترى بناتك فـــــي الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا**
**برزن نحوك للتلسيم خاشعـــــــــــة أبصارهن حسيراتٍ مكاسيرا**
**يطأن في الطين والأقدام حافية كأنـــــــــها لم تطأ مسكًا وكافورا**
**أفطرت فـــــــي العيد لا عادت إساءته وكان فطرك للأكباد تفطيرا**
**من بات بعدك فـــــــــــــي ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا**

وخوفًا من أن تتساءل كما تساءل العقاد عن التين والعنب في قصيدة أبي تمام البائية فتقول منتقدًا: متى كان المسك والكافور للموطئ؟ فإننا نقول لك كما قلنا لذاك العلامة في غير هذا الكتاب.

**حكاية المسك:** زعموا أن زوجة المعتمد أعجبها مشهد النسوة الفقيرات يحملن جرارهن ويخضن في الوحل، فتمنَّت أن تفعل مثلهن، فأبى المعتمد، ولكنه حبًّا بتلك الملكة عمل لها وحلة من مسك، فحملت جرَّتها مثلهن وفعلت هي وبناتها كما فعلن، ويقال إنها حينما جاءت زائرة زوجها الملك في زندانه، تذمرت وقالت إنها لم تشاهد يومًا أبيض في حياتها معه، فأجابها المعتمد: ولا يوم الطين ...!

**من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا**

**المعتمد وأبو فراس:** المعتمد أبو عيلة، ولذلك جاء تفجعه مؤلمًا، أما أبو فراس فكان برًّا بأمه فما ذكر غيرها حين قال:

**لولا العجوز بمنبج ما خفت أسباب المنيه**

فبعد هذا الذي نقلناه لك من شعر المعتمد، أقول: تعطلت لغة الكلام فقابِل أنت بين الشاعرين، فكلاهما منكوب، وقد صح فيه قول من قال:

**ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد**

فلو تذكر المعتمد في سجنه بأية صورة وحشية قتل شاعره ووزيره ابن عمار، لهانت عليه مصيبته، وعندما تقرأ رثاء أبي البقاء الرندي للأندلس، ستهون جميع المصائب.

**ابن هانئ الأندلسي:**

نسبه: هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي، وُلد بإشبيلية ٣٢٦، اتصل بعامل إشبيلية زمن المستنصر الأموي، فمدحه بقصائد غرَّاء، اتُّهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بمذاهب الفلاسفة، وظهر ذلك الأثر في شعره لوصفه الممدوح بصفات المعبود، فنقم لذلك أهل إشبيلية فأشار عاملها عليه بالهجرة، فهاجر إلى المغرب ومدح ولاته من قبل المعز الفاطمي، فاتصل خبره بالمعز فدعاه إليه ومدحه بإفريقية، ودخل في دعوة الفاطميين فاتخذه المعز شاعرًا لدولته.

ولما فُتحت مصر على يد جوهر وبنى القاهرة ورحل المعز إليها، أراد ابن هانئ اللحاق به، فتجهَّز وتبعه، ولما وصل إلى برقة نزل على بعض أهلها، فأقام عنده في مجلس أنس، يقال إنهم عربدوا عليه وقتلوه وعمره ٣٦ سنة، ويقال أيضًا إنه وُجد مشنوقًا بتكة سراويله، روي أنه عندما بلغ المعز خبر موته قال: هذا شاعر كنا نرجو أن نفاخر به الشرق.

**أخلاقه:** كان غير ديِّن، خالعًا كافرًا.

**لقبه:** متنبي الغرب.

**صراحته:** كان صريح القول والفعل، لا يبالي بأحد ولا بعواقب الصراحة، ومبالغته بها قتلته. وهذه المبالغة في الصراحة أدت إلى تطرفه في الأفكار والمديح حتى قال لممدوحه:

**ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار**

وقوله:

**هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء**

**شعره:** قيل فيه:

**إن تكن فارسًا فكن كعليٍّ أو تكن شاعرًا فكن كابن هاني**

هو كبير شعراء الأندلس، غير مدافع، سليم التفكير، سلس التعبير، عالج كثيرًا من مشاكل الحياة وأحوال الاجتماع.

**تأثره بالمتنبي:** اطَّلع على شعر المتنبي وهو معاصره، فنسج نسجه في الحكمة والفلسفة والأمثال، وفاقه في المبالغة التي لم نسمع بمثلها في الشعر العربي.

**وصفه:** يجيد وصف ما يراه إجادة نادرة، ولذلك سموه متنبي الغرب، تشبيهًا له بأبي الطيب، إنما بين الاثنين فرق: المتنبي مبتدع، وابن هانئ متبع، شعره يقرقع، كما قال المعري.

**أبوالبقاء الرندي:**

وأبو البقاء الرندي هو أبو البقاء صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف الرندي الأندلسي (٦٠١ هـ -٦٨٤ هـ الموافق: ١٢٠٤ - ١٢٨٥ م) هو من أبناء (رندة) قرب الجزيرة الخضراء بالأندلس وإليها نسبته، وقد عاشَ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وعاصر الفتن والاضطرابات التي حدثت من الداخل والخارج في بلاد الأندلس وشهد سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد الأسبان، وحياتُه التفصيلية تكاد تكون مجهولة، ولولا شهرة هذه القصيدة وتناقلها بين الناس ما ذكرته كتب الأدب، وإن كان له غيرها مما لم يشتهر، توفي في النصف الثاني من القرن السابع ولا نعلم سنة وفاته على التحديد، وهو من حفظة الحديث والفقهاء. وقد كان بارعا في نظم الكلام ونثره، وكذلك أجاد في المدح والغزل والوصف والزهد، إلا أن شهرته تعود إلى قصيدة نظمها بعد سقوط عدد من المدن الأندلسية، وفي قصيدته التي نظمها ليستنصر أهل العدوة

الإفريقية من المرينيين عندما أخذ أول سلاطين غرناطة في التنازل للإسبان عن عدد من القلاع والمدن إرضاء لهم وأملا في أن يبقى ذلك على حكمه غير المستقر في غرناطة وتعرف قصيدته بمرثية الأندلس، وهي من أروع القصائد في رثاء الأندلس، يقول في مطلعها:

**لكل شيء إذا ما تم نقصان *** فلا يغر بطيب العيش إنسان**

**هـــي الأمور كما شاهدتها دولٌ *** من سره زمن سائته أزمانُ**

أما مناسبتها، فقد أخذت سيطرة العرب المسلمين، في نهاية حكمهم لبلاد الأندلس، تتضاءل شيئا فشيئًا، بسقوط بعض المدن الإسلامية الهامة، في أيدي الفرنجة، وأصبحت البلاد تروّع كلّ يوم، بغارات الأعداء دون أن تجد قوة إسلامية، تصد الزحف الصليبي المتوغل، وقد أدرك المفكرون هول الخطر الراصد، فانطلق الشعراء والأدباء، يصوّرون النهاية المتوقعة، في حسرة بالغة، ومما قيل في هذه المأساة ما نقدّمه الآن من أبيات صاغها شاعر متفجع يبكي الوطن الضائع، ويحذّر المسلمين في شتى البقاع الأرض.

********

# نماذج من الشعر العباسي والأندلسي

## أضحى التنائي لابن زيدون

**من ابن زيدون؟**

هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أحمد بن غالب بن زيد المخزومي، شاعر أندلسي، ولد في قرطبة عام ٣٩٤هـ في قبيلة بني مخزوم المعروفة بمكانتها العظيمة في الإسلام، حيث عرفت بشجاعتها وفروسيتها، كان والد وجدّ ابن زيدون من أعظم وأكبر العلماء والفقهاء المعروفين، وقد تولى جده القضاء في مدينة (سليم) الأندلسية. وقد عانى ابن زيدون من فقد والده عندما كان في الحادية عشر من العمر، الأمر الذي دفع جده لتربيته، وتنشئته على التنشئة السليمة، حيث علّمه النحو، والقرآن، والعلوم، والشعر، والأدب، ممّا زاد من ذكائه، فعُرف بالنبوغ في مختلف مجالات العلوم، خاصّةً في الشعر والنظم. موهبة ابن زيدون الشعرية اتصل ابن زيدون بأكبر الشعراء والأعلام في العصر الأندلسي رغم صغر سنّه، حيث تولّى العديد من المناصب العليا، وأهمّها منصب الوزارة، ومنصب القضاء، نظرًا لدوره في نصرة المظلوم، والعدل، كما لم ينشغل عن موهبته الشعرية، حيث تغنّى بشعر من كلّ غرض، كالفخر، والرثاء، والغزل، والوصف، حيث برع في وصف الطبيعة.

**دور ابن زيدون السياسي:**

عاش ابن زيدون في أكثر الفترات العصيبة في العصور الإسلامية، حيث شهدت تلك الفترة الكثير من الفتن، لذلك لعب دورًا مهما في التأثير على الشعب، خاصةً بعد مقتل الكثير من قادة المسلمين، وأبرزهم الخليفة الأموي نتيجة الفتن الواقعة بين الولايات والطوائف، وكان لابن زيدون الدور الأكبر في إنهاء الخلافة الأموية في قرطبة، حيث ساعد ابن جهور على تأسيس الحكومة الجهورية، من خلال تحريكه للجماهير عن طريق استخدامه للشعر، لذلك اعتمد عليه الحاكم ابن جهور بشكلٍ كامل، مما أدى لتوطيد العلاقة بينهما، إلا أنها سرعان ما انتهت نتيجة تدخل بعض الوشاة الذين أوقعوا بينهم، مما أدى لاعتقال ابن زيدون، وسجنه.

**ابن زيدون وولَّادة:**

ظهرت مَلَكة الشعر عند ابن زيدون وهو في سن العشرين، عندما أطلق مرثيَّة بليغة على قبر القاضي ابن ذكوان عند وفاته، وسرعان ما تطوَّرت العلاقات إلى أن وصلت إلى ولّادة بنت المستكفي بالله الخليفة الأموي، التي ما لبثت بعد وفاة أبيها إلا أن انشقَّت عن النساء والتحقت بمجال الشعراء والأدباء، ويشهدُ لها الناس بحسن مجلسها وجمال مبسمها ووجهها، ولم يمرّ وقت كثير على تطور العلاقة بينهما، إذ أرسلت إليه رسالةً مجيبة له بعد إصراره على لقائها، قالت فيها:

**ترقّب إذا جنّ الظلام زيارتي فإنّـــــي رأيت الليل أكتم للسرِ**

**وَبي منك ما لو كانَ بالشمسِ لم تلح وبالبدر لم يطلع وَبالنجم لم يسرِ**

بيد أنَّ سرهما لم يلبث أن انكشف أمره أمام الناس، وتناقلت الإشاعات بأنَّ ابن زيدون يحبُّ جارية ولَّادة وكان أحدهم يقال له ابن عبدوس

يحاول أن يظفر بولّادة مستندًا على ماله ونجح في ذلك، مما استثار حفيظة ابن زيدون، وبدأ يهجو بابن عبدوس بطريقةٍ لاذعة حوَّلت حبَّ بنت المستكفي إلى بغضٍ وكرهٍ شديدَين. ولم ينأ ابن عبدوس عن تدبير المكائد لابن زيدون فاتهمه بتبديد أموال مؤتمنٍ عليها، فحُطَّ به في السجن، إلَا أن ذلك لم ينسِهِ ولَادة وكتب نونيَّتَه هذه.

عُرف ابن زيدون بحبِّه الشَّديد لولَّادة بنت المستكفي، وقد ذكرها في الكثير من قصائده، وولَّادة بنت المستكفي هي ابنة الخليفة الأموي المستكفي بالله في الأندلس، وأمّها جاريةٌ إسبانيَّة، كانت من أروع الشُّعراء في زمانها، وبَرَعت في الأدَب والشِّعر، حوَّلت دارها بعد مقتل والدها وزوال الخلافة الأموية في الأندلس إلى ملتقىً أدبيّ، ومجلسٍ للشُّعراء والأدباء يتحدَّثون فيه عن شؤون الأدب والشِّعر، وكان ابن زيدون من رُوّاد هذا المجلس، وقد أحبَّها ابن زيدون حُبًا شديدًا، إلَّا أن هذا الحب لم يدم كثيرًا، ولم تدم أيام الصَّفا بينهم وقتًا طويلًا، فحصل بينهم الجَفا والفراق، ولم تتزوَّج ولّادة من أحد أبدًا.

**شعر ابن زيدون:**

يحتلُّ شِعر الغَزل ثلث شِعر ابن زيدون، ويتميَّز غزله بالعاطفة القويَّة والمشاعر المتدفِّقة، وقد احتلّ وصف الطبيعة والمدح والرِّثاء نصيبًا من قصائده، وكانت اللَّوعة والاشتياق لقرطبة ومحبوبته ولَّادة باديتان في قصائده، وقد اشتهر شعره بالبساطة واستخدام التَّراكيب الشِّعريَّة البسيطة. من أشهر قصائده القصيدة النونيَّة التي نحن بصدد شرحها، والَّتي أرسلها إلى محبوبته ولَّادة بعد فراره من السِّجن إلى إشبيلية، وهي قصيدة طويلة سنذكر منها بعض الأبيات.

**وفاة ابن زيدون:**

توفي ابن زيدون عام ٤٦٣هـ في إشبيلية عن عمر يناهز الثمانية والستين عامًا، عندما أرسله المعتمد على رأس الجيش ليوقف الفتنة الواقعة هناك، إلا أنّ المرض أصابه، ممّا أدى لوفاته.

**الشرح والتحليل:**

**الفكرة العامة: وفاء الشاعر في حبه لولادة.**

يكاد الشاعر في هذه الأبيات، يذوب أسى وألما على فراق محبوبته ولادة بن المستكفي، ويتحرق شوقا إليها وإلى الأوقات الصافية الماتعة التي أتيحت له معها، وفي ظلال هذه العاطفة المتأججة الملتهبة، أنشأ هذه القصيدة النابضة بالحياة المترجمة عما في صدره من مكنون الحب والوفاء العجيبين.

الفكرة الأولى: وصف للحاضر الأليم، وتألم على الماضي الجميل، ويعبر عن كل ذلك من خلال أبيات تقطر وفاء وحبًا وتجلدًا.

**أضحى التنائي بديلًا من تدانينا وناب عن طيبِ لقيانا تجافينا**

وهنا يستهل الشاعر قصيدته بالتوجع والتحسر على ما صارت إليه حاله فقد تغيرت من قرب بينه وبين محبوبته إلى بعد ونأي يتزايد مع الأيام. لقد تحول القرب بعدا وصار اللقاء جفاء وهو أمر يشقيه ويعذبه كما نجد الشاعر قد استخدم ألفاظا جزلة في التعبير عن مدى وطول البعد وقوة الشوق حيث استخدم ألفاظ ذات حروف ممدودة يمتد فيها النَفَسُ ليعبر عن ألمه ونجد ذلك في جميع ألفاظ البيت الأول. فهو يقول إن التباعد المؤلم بينه وبين محبوبه

أضحى هو السائد بعد القرب الذي كان وحل مكان اللقاء والوصل الجفاء والهجر.

**ألاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحَنا حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعِينَا**

متابعة للفكرة التي تسيطر على هذه المجموعة من الأبيات، والتي يتحدث الشاعر من خلالها عن مدى الحرقة، والألم اللذين أصاباه في مقتل، حتى أوشك على الهلاك. ولعل الشاعر قد وفق في توظيف الألفاظ الدالة والمعبرة عن تجربته الحزينة، حيتما استخدم ألفاظًا تعضد تلك التجربة الصادقة مثل: البين، والحين، ولعل مما ساعد على تأجيج تلك العاطفة، توظيفه للغة توظيفا غير مباشر، وغير حقيقي، عندما اضاف الصبح للبين، مع ما بين المفردتين من مفارقات، فالصبح رمز التفاؤل، والأمل، تحول عند شاعرنا إلى معادل للفناء، والموت.

**مَنْ مبلغُ الملبسِينا، بانتزاحِهمُ حُزْنًا، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا**

**أن الزمان الذي ما زال يضحكنا أنسا بقربهم قـــــــد عاد يبكينا**

لا شك أن التعبير غير المباشر عن التجربة الشعرية يزيدها بريقًا، والقًا، لذا نرى الشاعر في البيت السابق يوظف الاستفهام لغير ما وضع له في الحقيقة، وذلك إظهار بغرض التوجع والتحسر والألم الذي حل به، ومما يدل على شدة معاناته انه راح يطلب من أي أحد أن يبلغ أولئك الذين ألبسوه هذا الثوب؛ ثوب الحزن الدائم، المتجدد وابتعدوا عنه(ويقصد هنا الواشين الذين فرقوا بينه وبين محبوبته) أن هذا الحزن ملازم له لا يفارقه حتى يهلك، وأن ضحكه قد تحول إلى بكاء دائم، و أن الزمان الجميل السابق والذي ملأ حياتنا أنسا، وحبورا، وسرورًا.. قد تحول، وتبدل.. فهو اليوم يبكينا، ويحزننا،

وكأننا به وقد وصل به الضعف درجة يستعطف أولئك الشانئين أن يرقوا لحاله، وحال محبوبته وأن يتركوهما وشأنهما.

**غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا**

ويستمر الشاعر في إرسال رسائله إلى محبوبته وإلى مستمعيه.. فيقول: بأن عذاله قد حنقوا عليه وعلى محبوبته لما بينهما من صفاء، وود، ومحبة، وأن الدهر قد استجاب لدعائهم وحقق لهم ما أرادوا من وقيعة بينهما فأصابهما الحزن والألم.

**فَانحَلّ ما كانَ مَعقُودًا بأَنْفُسِنَا وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولًا بأيْدِينَا**

**وَقَدْ نَكُونُ، وَمَا يُخشَى تَفَرّقُنا فاليومَ نحنُ، ومَا يُرْجى تَلاقينَا**

من الواضح أن هناك ترابطًا بين البيت السادس، وبين البيت الخامس، بحيث صار البيت السادس نتيجة طبيعية لكيد العدا، والعذال الذين ساءهم ما كان عليه الحبيبان من وفاق، وصفاء، ومودة..، فكان نتيجة ذلك كله أن تفرقنا، وتباعدنا، وانفرط عقد محبتنا، وما كان بيننا من وئام، واتفاق، حيث لم يكن يخطر ببال أحد منا أن يأتي هذا اليوم الحزين، الذي نفترق فيه فراقًا لا يرجى من ورائه لقاء، أو وصال.

**يا ليتَ شعرِي ولم نُعتِبْ أعاديَكم هَلْ نَالَ حَظًّا منَ العُتبَى أعادينَا**

**لم نعتقدْ بعدكمْ إلاّ الوفاء لكُمْ رأيًا، ولَمْ نَتَقلّدْ غَـــــيرَهُ دِينَا**

وفي لهجة المحب المنكسر، والعاشق الواله، الذي يكتم الحسرات غصصا في قلبه يخاطب الشاعر، بل يعاتب، مستخدمًا أسلوب النداء وحذف المنادى، لأنه علم ومعروف، وليس بحاجة إلى تعريف، فهل نال العدا من الرضا، مثلما نلنا من الهجران؟!، فكيف يتم ذلك؟!! ونحن الأوفياء، ونحن

المخلصون على الرغم من هذا النأي، فليس لأحد أن يملأ هذا الفراغ الحاصل في قلبي سواكم.

**ما حقّنا أن تُقِرّوا عينَ ذي حَسَدٍ بِنا، ولا أن تَسُرّوا كاشِحا فِينَا**

**كُنّا نرَى اليَأسَ تُسْلِينا عَوَارِضُه وَقَدْ يَئِسْنَا فَمـــا لليأسِ يُغْرِينَا**

ولا يزال شاعرنا يعيش تحت تأثير العتاب العفيف، الخفيف، فأنى لشاعر مثل ابن زيدون أن يكون قاسيًا على محبوبه، فعلى الرغم من الصد ومن الهجران.. فلم يشعر يومًا بأنه ارتكب جرمًا يستحق كل هذا العذاب، وهذا النأي، فَيُقَرَّبُ الحسود وتقر عينه، ويسر الشانئ المبغض، ويشمت بهما!! وقد وصل به الأمر حدا صار اليأس سلواه التي يسري به عن نفسه، حتى استحكم اليأس من قلبه.

**بِنْتُمْ وبِنّا فما ابتلّتْ جوانحُنا شوقًا إليكمْ ولا جفّتْ مآقينا**

وهنا يفصح الشاعر عما يكنه من وفاء، وإخلاص لولادة ويبثها آلآمه ولوعته فقد ابتعدتم عنا وابتعدنا عنكم، ونتيجة هذا البعد فقد جفت ضلوعنا وما تحوى من قلب وغيره، واحترقت قلوبنا بنار البعد في الوقت الذي ظلت فيه (مآقينا: جمع مؤق وهو مجرى العين من الدمع، وجانبها من جهة الأنف) عيوننا تذرف الدمع من تواصل البكاء لأنه مشتاق محروم فلا أقل من أن يخفف همه بالبكاء ويسلي نفسه بالدموع.

**نَكادُ حينَ تُناجيكمْ ضمائرُنا يَقْضي علينا الأسى لولا تأسّينا**

ويستمر الشاعر في وصف الصورة الحزينة القاتمة فيقول: يكاد الشوق إليكم يودي بحياتنا لولا التصبر والتسلي، والأمل في اللقاء، حينما تعود به الذكرى على الأيام الخوالي، فيتصور الجمال والفتنة والحب والبهجة والأمل والسعادة،

ويهتف ضميره باسمها، ويناجيها على البعد، لأنها قرينة روحه، وصنو نفسه، حينما يعيش أبعاد التجربة العذبة المؤلمة، ويوازن بين ما كان عليه وما صار إليه تقرب روحه أن تفارق جسده بسبب الحزن المفرط الذي يملأ جوانحه، لولا أنه يمني نفسه بالأمل، ويعزي روحه عن المحنة بالتصبر.

**حالتْ لفقدِكمُ أيامُنا فغدتْ سودًا وكانت بكم بيضًا لياليناَ**

وإمعانا في تجسيد معاناة الشاعر يقول: لقد تبدلت الحياة الوادعة الهانئة الجميلة، وأظلمت الدنيا المشرقة الباسمة المضيئة، فجللها السواد وعمها الظلام ببعد ولادة.

**إذْ جانبُ العيشِ طلْقٌ من تألّفنا ومربعُ اللّهوِ صافٍ منْ تصافينا**

ويبدو الترابط بين الأبيات واضحًا، وما ذاك إلا لأن بعضها قد ترتب على بعض، وصار بعضها يكمل بعضها الآخر ويترتب عليه في المعنى، ففي هذا البيت يتذكر أيامه الهانئة مع محبوبته حيث كانت الحياة صافية متفتحة، وحيث كانا يجنيان ثمار الحب ما يشاءان، ومتى يشاءان، فهو يقول أن عيشنا الماضي كان طلقًا (مشرقًا) من شدة الألفة بيننا، وقوة الترابط، حيث اللهو، والسمر فيما بينهما، لا يعكر هذه الأجواء الوادعة حزن، ولا هم، ولا شقاق، ولا خلاف، ولهذا فهو صاف مثل المورد العذب الجميل، من شدة التتصافي، وخلو المودة مما يكدرها.

**وَإذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الوَصْلِ دانية قِطَافُها، فَجَنَيْنَا مِنْهُ ما شِينَا**

واستكمالا للوحة الذكريات الجميلة الفاتنة، يستحضر الشاعر تلك المشاهد الرائعة التي عاشها مع ولادة: فقد كنا نستميل أصناف الوداد، والحب، والوصال المتنوعة، فنقطف منها ما نشاء.

الصور البيانية: ولعل هذا البيت قد اشتمل على صورة من أجمل صور الوداد حين شبه لنا الشاعر أصناف الوصل، والحب، والوداد بالأعناب الدانية القطاف، أو الثمار الدانية القطاف والتي في متناول اليد، والتي يتناول منها المرء ما يشاء، ومتى شاء، ولا إخالها إلا صورة جميلة مستوحاة من جمال الطبيعة الأندلسية الفاتنة.

**ليُسقَ عهدُكم عهدُ السرورِ فما كنتمْ لأرواحِنا إلاّ ريحانا**

ويحلق الشاعر في عالم من الخيال، ويطوف به طائف من الذكرى الحلوة، فيدعو لعهد الوفاء بينهما بالحياة، والتجدد، والنماء؛ لأنه عاش فيه وصفت روحه به، وتلقى من محبوبته مشاعل الأمل وحب الحياة، وهو دعاء يكشف عن الحنين إلى العهد الماضي، وعن جمال الذكرى، وإذا كان الفراق يغير المحبين، ويجعلهم ينسون حبات قلوبهم فلن يستطيع أن ينسى الشاعر هواه، بل يزيده البعد وفاء وإخلاصا، فما زالت أمانيه متعلقة بولادة وهواه مقصورا عليها فقد كانت الرياحين لروحه وما زالت كذلك.

**لا تَحْسَبُوا نَأيَكُمْ عَنّا يغيّرُنا أنْ طالَما غَيّرَ النّأيُ المُحِبّينَا!**

وفي محاولة من الشاعر لاسترضاء محبوبته، واستدرار عطفها، يرسم لنفسه صورة مثالية، ووضيئة، فهو من طينة ليست كطينة باقي المحبين، الذين يغيرهم البعد، فعلى الرغم مما حصل بينهما إلا أنه ما يزال نحافظًا على حبال الود، والوصل.

**واللهِ ما طلبت أرواحُنا بدلًا منكمْ ولا انصرفتْ عنكمْ أمانينا**

وزيادة في حب الوصال، راح الشاعر يرسل رسائل الطمأنة لمحبوبته، فهو يقسم لها بالله بأن قلبه لن يتعلق بغيرها ولم تتحول أمانيه عن حبها، ولقد

كان اختيار الشاعر لكلمة (أرواحنا) موفقا إلى حد كبير، حيث ذكرت إحدى الروايات كلمة (أهواؤنا) بدل (أرواحنا)، على ما بينهما من فوارق بين الأرواح، والأهواء.

**يا سارِيَ البَرْقِ غادِ القصرَ وَاسقِ به مَن كانَ صِرْف الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا**

**وَيَا نسيمَ الصَّبَا بلّغْ تحيّتَنَا مَنْ لَوْ على البُعْدِ حَيّا كـــــان يحيِينا**

ولا شك أن الشاعر هنا يريد أن يشرك عناصر البيئة، أو الطبيعة في الوساطة بينه وبين ولادة من جهة، ومن جهة أخرى حيث راح يستعين بها لتحمل معه ثقيل أعبائه، فلعلها تقف بجانبه، وتخفف عنه من آلامه في وحدته، وغربته التي يعاني منها، والوقوف بجانبه، وفي مظهر حقيقي من مظاهر الود، والوفاء، والإخلاص راح الشاعر يستسقي المطر في ترفق ورجاء، ويطلب منه أن يبكر في إرواء قصر محبوبته بماء المطر العذب الصافي، لأنها كثيرا ما سقته الهوى خالصا نقيا من الخداع والزيف، ولا يكتفي الشاعر بالمطر.. بل راح يقصد نسيم الصبا لينقل تحياته إلى محبوبته التي لو ردت عليه التحية فإنها ستمنحه الحياة، وتبعث فيه الأمل.

**وَاسألْ هُنالِكَ:هَلْ عَنّى تَذكُّرُنا إلفًا، تذكُّرُهُ أمسَى يعنّينَا**

واستكمالًا لمشهد الشوق والحنين، يحمل الشاعر مظاهر الطبيعة (نسيم الصبا) أمانة السؤال، والتقصي داخل القصر، أن كان بعده عنهم قد ترك أي أثر على محبوبته أم لا؟! ثم يبادر معبرًا عن مكنون صدره، وعن مرهف مشاعره، ورقيق إحساسه..الذي راح تذكره لها يسبب له الأرق، والمعاناة، والألم. ولعل اتكاء الشاعر على الاستعانة بمظاهر الطبيعة يوحي بانعدام، أو عدم جدوى المساطات بينه وبينها، مما اضطره للجوء لوساطات أخرى، يفرغ

من خلالها شحنات عواطفه الجياشة، لعلها تهدئ من روعه، وتسكن من لظى حبه.

**********

# سينية البحتري

## البحتري:

هو أبو عبادة، الوليد بن عبيد، والبحتري لقب عرف به الشاعر نسبة إلى أحد أجداده، "بحتر"، وقد لد بمنبج قرب حلب بسوريا عام ٢٠٤هـ، واتصل بأبي تمام، فتأثر به، واكتسب منه فصاحة اللسان وجمال الأسلوب، وذهب إلى بغداد، واتصل بالخلفاء والوزراء ومدحهم، خاصة الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، وقد توفي عام ٢٨٤هـ، وقد برع البحتري في الوصف والغزل، ويروى أن البحتري زار إيوان كسرى، وهو قصر الأكاسرة بالمدائن جنوب بغداد إثر مقتل الخليفة المتوكل، فأعجب به أشد الإعجاب، واستلهم من بنائه الضخم، ومن الرسوم الرائعة على جدرانه سينيته هذه، والتي اشتكى فيها من ضيقه وهمومه وتصبر بآثار كسرى والفرس، يقول:

| | |
|---|---|
| **صُنْتُ نَفسي عَمَّا يُدَنِسُ نَفْسي** | **وتَرَفَّعْتُ عن جَدا كل جِبْـــــسِ** |
| **وتماسَكتُ حينَ زَعزَعني الدَّهـ** | **ـرُ التماساً منه لتَعْسِي ونَكْسي** |
| **حَضَرَتْ رَحْلِيَ الهُمومُ فـــوجَّـ** | **ـهتُ إلى أبيضِ المدائنِ عَنْسي** |
| **ذَكَّرتْنيهُمُ الخُـــطوبُ التّوالـــي** | **ولقد تُذْكِرُ الخـــــطوبُ وتُنْسي** |
| **لـــــو تراهُ عَلِمْتَ أنّ اللّيالي** | **جَعَلَتْ فيهِ مأتماً بعـــــدَ عُرْسِ** |
| **فإذا مـــا رأيتَ صورةَ أنطاكِيّـ** | **ـــــــةَ ارتَعْتَ بينَ رومٍ وفُرْسِ** |
| **والمنايا مـــــواثِلٌ وأنوشِرْوانَ** | **يُزجي الصّفوفَ تحـت الدِّرَفْسِ** |
| **وعراكُ الرِّجالِ بينَ يَدَيْهِ فـــي** | **خُفوتٍ مِنْهُم وإغماضِ جَـــرسِ** |
| **تَصِفُ العينُ أَنَّهم جِدُّ أحـــياءِ** | **لَـــــــــهُم بَيْنَهُمُ إشارةُ خُرْسِ** |
| **يَغْتَلي فيهِمُ ارتيابيَ حتّـــــى** | **تَتَقَرَّاهُمُ يَداي بِلَمْــــــــــسِ** |

وصنت: حفظت، يدنس: يوسخ، جدا ( جدو): العطاء، جبس: اللئيم الجبان، زعزعنى: حركني بشدة، نكسي: إذلالي، (رحلي : الرَّحْلُ: كل شيء يعد

للرحيل من وعاء للمتاع وغيره، الهموم: الأحزان أبيض المدائن: المراد عاصمة الفرس، وهي تتألف من مدائن عدة، عنسي: ناقتي، الخطوب: مفردها الخَطْبُ، وهو الحال والشأن والأمر الشديد، التوالي: المتتابعة، مأتما: ( أَتَمَ ): الجماعة من الناس في حزن، جمع مَآتِم، وعرس: الزفاف والتزويج، جمع أعراس، وأنطاكية: أنطاكية مدينة عريقة وكبيرة تقع في جنوب تركيا، ارتعت: فزعت، المنايا: مفردها المنيّة وهي الموت، موائِلٌ: ماثلة وشاخصة وقائمة، أنو شِروان: من أشهر ملوك الفرس، يزجي: يرسل ويوجه، الدّرفس: العلم أو الراية، عراك: قتال، خفوت: هدوء وسكون، وإغماض: خفاء، جرس: الخفي من الصوت، جِدّ: لم يهزل، خرس: مفردها أخرس وهو من انعقد لسانه عن الكلام، يغتلي (غلو): يتعاظم، ارتيابي، الريب: الشك، تتقرّاهم: تتّبعه لتتحقق منه...

**الشرح**:

يفتخر الشاعر بنفسه، حيث إنه حفظ نفسه من كل ما يسيء إليه ويلوث سمعته، فقد ترفع عن طلب العطاء من الجبان اللئيم، وقد أراد الدهر أن يذله ويقهره، لكننه تماسك أمام عوادي الدهر وقابلها بخلق قوي وعزم راسخ، ويبين الشاعر سبب رحيله، حيث كثرت الهموم عليه وكثرت أحزانه لمقتل الخليفة المتوكل ووزيره، مما جعله في ضيق من العيش؛ فدفعه ذلك إلى توجيه ناقته للمدينة البيضاء ليسرِّي عن نفسه بعض ما فيها من الأحزان، وإن أحداث الدهر والمعاناة التي يعانيها الشاعر في معيشته ومقتل المتوكل ووزيره دفعته لتذكر مصير هؤلاء القوم، فلا عجب فإن المصائب منها ما يذكرك ومنها ما ينسيك، ثم يصف الشاعر إيوان كسرى الذي مَن يراه يوقن بأن الأيام والليالي قد جعلت الحزن سمة له، بعد أن كانت لا تفارقه الأفراح، وقد امتلأ القصر باللوحات الجدارية الجميلة التي تصور حروب ومعارك الفرس مع الروم.

وقد شد انتباه الشاعر مشهدا على جدار القصر يمثل معركة دائرة بين الروم والفرس ويصفها وصفا دقيقا، وقد شُخِص فيها الموت وعنف اللقاء، ويظهر فيها أنوشروان وهو يوجه جنوده ويدفعهم تحت رايته، وتدور رحى المعركة بين المقاتلين في سكون وهدوء وصوت خفي، يكاد الشاعر يسمع صوت جرسا خافتا مبهما لا وضوح فيه من شدة إتقان الصورة، فالعين بكل ما تراه من حركة تكاد تقر أنهم أحياء ولكنهم يستعملون بينهم لغة الإشارة، وتعاظم شكي في هذه اللوحة حتى ظننت أنهم أحياء بالفعل، مما دفعني إلى لمسهم بيدي؛ حتى أتأكد من كونها صورة لا حقيقة.

*********

# قصيدة فتح عمورية أبي تمام

## أبو تمام الطائي:

شاعر عربي، ولد في جاسم قرب دمشق، يقال اشتغل في صباه حائكًا في دمشق، ثم انتقل إلى الفسطاط (مصر) واشتغل ساقيا بجامعها، درس الثقافة العربية وشدا الشعر مكتسبا، تنقل بين الشام والجزيرة وأرمينيا وأذربيجان والعراق وخراسان، يمدح الخلفاء والأمراء والقادة الكبار، له ديوان معظمه في المدح ووصف البطولات، اتخذ لنفسه مذهبا خاصا يعتمد على الابتكار في المعاني والصور، ويرى النقاد أنه واحد من أعظم شعراء العروبة، أخرج عدة كتب، جمعت فيها مختاراته من الشعر مثل: "الاختيارات من شعر الشعراء"، و"الاختيار من أشعار القبائل"، و"أشعار الفحول" و"أشعار المحدثين"، وطبع منها "الحماسة" و"الحماسة الصغرى".

## مناسبة القصيدة:

كتب أبو تمام هذه القصيدة بعد النصر الذي حققه الخليفة العباسي المعتصم، حينما فتح عمورية مسقط رأس الإمبراطور الروماني (تيوفل)، وكانت هذه المعركة بمثابة رد على اعتداء إمبراطور الروم على بلدة ( زبطرة ) العربية، التي عاث فيها الروم فسادا وقتلا و تدميرا، وانتقاما لما حل بتلك المرآة العربية حينما اعْتُدى عليها، فهتفت مستنجدة: "وامعتصماه !"، ففي هذه القصيدة نجد أن الشاعر سخر من المنجمين، حينما حذروا المعتصم من فتح عمورية، وأكد الشاعر في هذه الأبيات على أن الحرب وحدها هي سبيل المجد والنصر والحقيقة، هذه القصيدة واحدة من الغُرر اللامعة في جبين الشعر العربي قديمه وحديثه، وسوف تظَل تترنم بها أجيال العرب والمسلمين حتى في أحلكِ لحظات تاريخهم؛ لأنها تُذكرهم بالمجد القديم، وتَستحثهم على أن ينهضوا ويَسموا إلى الأفق السامق، الذي حلَّق فيه المسلمون بقيادة

معتصمهم تحليق النسور، وانقضُّوا منه على أعدائهم، فافترسوهم وأبادوهم، ومزَّقوهم شرَّ مُمزَّقٍ، وجعلوهم عِبرة لمن تُسوِّل له نفسه الخبيثة العدوانَ على بلاد المسلمين.

لكن رَوعة القصيدة الخالدة ليست ترجع فحسبُ إلى موضوعها، وما تُثيره في نفوس العرب والمسلمين جميعًا من معاني المجد ومشاعر العزة، وتَستحثهم إليه من منازل الكرامة –وإنما ترجع أيضًا إلى ما حَوَتْه من كنوز الفن الراقي، أول ما يَلفت انتباهنا في هذه الرائعة الخالدة ما يُسَربِلُها من فخامة الوزن والقافية واللفظ والصورة ... إلخ، فخامة تناسب فخامةَ هذا الفتح المبين، الذي سحَق فيه المسلمون عُلوجَ الشِّرك، فغادروا تسعين ألفًا من هؤلاء الكلاب مطروحةً جثثُهم في وسط النيران التي أكلت بيوتهم، بيوت الرِّجس والعدوان، لا تجد مَن يسأل عنها أو يُبالي بها، فالبحر الذي صُبَّتْ فيه القصيدة من الأبحر الطويلة التي تُهيئ للشاعر الفرصة؛ لأن يهتف ويُجلجل صوته كما يَحلو له الجَلجلة والهُتاف.

ثم تأتي القافية البائية التي لم يتكرَّر فيها لفظ واحد مرتين، لتَقرَعَ الآذان قرعًا، فتَغمُر الجسم والنفس فورةُ الحماسة، ويستيقظ أنبلُ وأكرم وأمجدُ ما في الإنسان، بل إني لأَتخيَّل الشاعر وهو يَنظُم رائعته هذه وقد سَخُنَتْ رأسُه، وأصبح لخياله ألفُ عينٍ وعين يُبصر بها، ويَقتنِص هذه الصور العجيبة التي تُخيِّل لك وأنت تقرأ القصيدة أنك في معرض للفن العظيم تَبْهُر عينَك اللوحاتُ الفاتنة الساحرة، فلا تستطيع – إلا بالمشقة – التركيز على إحداها؛ لأن كلًّا منها يَدعوك في ذات الوقت لتَتملَّاها وأنت متحير بين هذه وذي وتلك، ومَن ذا الذي يقرأ الأبيات الآتية وهو متمالكٌ مشاعرَه؟!

**أفكار القصيدة**:

**الفكرة الأولى:** تمجيد القوة، والسخرية من المنجمين –الأبيات من: (١–٤)– وهذه الأبيات تبدأ بالتهكُّم الصاعق على المنجِّمين وتَخرُّصاتهم؛ إذ

حاولوا أن يَثنوا المعتصم بالله عن إنفاذ الجيش للانتقام من عدوان الروم على أطراف الدولة، تحت شُبهة أن النجوم تخبرهم بأن الحملة ستفشل إن خرَجت في ذلك الوقت، والشاعر في أثناء ذلك يَسخَر من النجوم والأبراج وتقسيمات المنجمين لها إلى أَبْرُاج عُليا وغير عليا، يقول:

**السَيفُ أَصدَقُ إنباءً مِنَ الكُتُبِ  في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ**

*السيف أصدق: استعارة مكنية، حذف المشبه به، وهو"الإنسان" وذكر شيئًا من لوازمه وهو "الصدق"، ومعنى البيت: لقد ارجف المنجمون، وخوفوا من الاتجاه نحو عمورية، وتحدثوا عن أحداث جسام ستتمخض عنها الأيام، فماذا كان؟ استمر الزحف يقوده الخليفة، فحقق النصر، وأبطل بسيفه ما ارجفوا به، وأثبت السيف أنه أصدق من كتبهم، وأن حده قد ميز الحق من الباطل المفترى.

**بيضُ الصَفائِحِ لا سودُ الصَحائِفِ فى  مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ وَالرِيَبِ**

* بيضُ الصَفائِحِ: كناية عن السيوف، وسودُ الصَحائِفِ: كناية عن كلام المنجمين، ومعنى البيت: بياض السيف بدد ظلام الشك، الذي ألقوه على النفوس من خلال ما قرأوه في أوراقهم وكتبهم السود، التي تنقل كما يقولون عن الشهب والنجوم، فما يكون لظلام الشك الذي يتسلل من هذه الصحف أن يثبت أمام لمعان السيوف وبياضه، فكأنه يقول لهم:

أتزعمون أن في تنجيمكم الحدَّ بين الجِد واللعب؟ كلَّا ثم كلَّا، بل الحد بين الجد واللعب هو في حد سيوف الإيمان! أتَزعُمون أن في سواد كتابات صُحفكم جِلاءَ الشك والريب؟ كلَّا ثم كلَّا؛ إذ كيف يكون في ظلمة السواد جلاءٌ من الشك والريبة؟ إنما جلاء الشك والريبة في نور بياض السيوف حين تُنْتَضَى ويُهْوَى بها على رؤوس الكفر والضلال! أتزعمون أن عند شُهبكم العلمَ بما يُخبئه المستقبل؟ كلَّا ثم كلَّا، إنما علمُ ذلك يتجلَّى للعين على لمعِ الحسام إذا حمِي وطيسُ القتال، فهو الذي يقرِّر النصر والهزيمة؛

إذ لا نصرَ لعاجزٍ متخاذل يُنصت إلى أكاذيب الدجَّالين، وإنما النصر من عند الله يَهبه لكلِّ مؤمنٍ شجاع يأخذ عُدته وينطلق في سبيل الله، مقتحمًا الأخطار عاقدًا العزم على النصر أو الاستشهاد، وهكذا...

**وَالعِلمُ في شُهُبِ الأَرماحِ لامِعَةً  بَينَ الخَميسَينِ لا في السَبعَةِ الشُهُبِ**

* شبّه الرماح بالشهب اللامعة التي تظهر في السماء، ومعنى البيت: أن أنباء النصر والهزيمة، تأتي من أسنة الرماح،و تؤدي دورها في المعركة، فهذه الأسنة بلمعانها وحركتها وتأثيرها، هي الشهب التي يجب أن نعتمد إليها، حين نطلب النصر، وليس بالنجوم التي اعتمد المنجمون عليها.

**أَينَ الرِوايَةُ بَل أَينَ النُجومُ وَما  صاغوهُ مِن زُخرُفٍ فيها وَمِن كَذِبِ**

* الاستفهام هنا يفيد التهكم والسخرية، ومعنى البيت: يسخر الشاعر ويستهزأ من المنجمين، ويقول: أين روايتكم عن كتبكم؟ بل أين تلك النجوم التي افتريتم عليها، ونسبتم إليها ما أذعتموه من أكاذيب قدمتموها في عبارات منمقة خداعة.

**الفكرة الثانية:** عظمة الفتح والفرحة بالنصر، الأبيات من: (٥-٧).

**فَتحُ الفُتوحِ تَعالى أَن يُحيطَ بِهِ  نَظمٌ مِنَ الشِعرِ أَو نَثرٌ مِنَ الخُطَبِ**

**معنى البيت:** يعبر الشاعر عن عظمة فتح عمورية ويصفه بفتح الفتوح، ومن عظمة هذا الفتح

يعجز الشعر والنثر عن الوفاء بحقه ووصفه.

**فَتحٌ تَفَتَّحُ أَبوابُ السَماءِ لَهُ  وَتَبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ**

* تَفَتَّحُ أَبوابُ السماء له: شبه السماء بصورة "البيت"، فحذف المشبه به وذكر شيئًا من لوازمه: "أبواب"، على سبيل الاستعارة المكنية، وَتَبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ: شبه الشاعر الأرض بإنسان يرتدي ثوبًا جديدًا، فحذف المشبه به، وهو: "الإنسان"، وذكر شيئًا من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، ومعنى البيت: هذا الفتح العظيم تستبشر به السماء فتتلقاه متفتحة

الأبواب، وتبتهج به الأرض، فتبدو في زينتها وجلالها كالإنسان الذي يرتدي أجمل ثيابه، وقد اندفع يَهتِف ممجدًا هذا الفتحَ المبين الذي يُسميه عن جدارة "فتح الفتوح"، الذي اهتزَّ له الكون كله طربًا، فكأنه في يوم عيد، وكيف لا؟ وقد عزَّ به الإسلامُ والمسلمون، وذلَّ به الشركُ والمشركون، وذلك حين سقَطت عمورية التي يصفها الشاعر قائلًا: إنها "شابتْ نواصي الليالي وَهْيَ لَمْ تَشِب"، عمورية التي تأبَّت على مَن حاوَلَ قَبلَ المعتصمِ فَتْحَها من الفاتحين، كما تتأبَّى الحسناء المدلة بجمالها وفِتنتها على الخُطَّاب والعاشقين، احتقارًا لهم وغرورًا بتلك الفتنة الخالدة، عمورية الغادة البكر التي اعتَلَتْ على كرِّ الأزمان عرشَ المجد، فلم تستطع هِمَّةُ النوائب أن ترتقي إليها في عليائها وبهائها، فجاء المعتصم ففعَل ما لم يَفعَله الأولون؛ إذ أذل كبرياءَها، وأَسْلَسَ عِصيانَها!.

**يا يَومَ وَقعَةِ عمورية اِنصَرَفَت  مِنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ**

* مِنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ: شبه تحقيق الأماني بالنصر على الأعداء، بصورة الناقة التي امتلأ ضرعها باللبن، فحذف المشبه به: "الناقة"، وذكر شيئًا من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، **ومعنى البيت:** يبرز الشاعر فرحته وإعجابه بفتح عمورية، وتحقيق أماني المسلمين، فعادوا فرحين منتصرين، شبه ذلك بالحليب الممزوج بالعسل في ضرع الناقة، وهنا كنايه على حلاوة النصر.

**الفكرة الثالثة:** تصوير الدمار والحريق الذي أصاب عمورية: الأبيات من: (٨-١٠)

**لَقَد تَرَكتَ أَميرَ المُؤمِنينَ بِها  لِلنارِ يَومًا ذَليلَ الصَخرِ وَالخَشَبِ**

***معنى البيت:** يصف الشاعر الدمار الذي أصاب مدينة عمورية بعد أن فتحها المعتصم، حيث يقول: فقد أوقعت بها وغادرتها مهدمة، فر عنها

أهلها، فاستوحشت ساحتها وميادينها، وتأكلها النيران، فذلت أمام سطوتها صلابة الصخر والخشب.

غادَرتَ فيها بَهيمَ اللَيلِ وَهوَ ضُحىً  يَشُلُّهُ وَسطَها صُبحٌ مِنَ اللَهَبِ

* وهو ضحى: صور الليل قد ارتدى باهر الضوء بصورة الضحى، **ومعنى البيت:** يتابع الشاعر وصف الدمار الذي حلّ بمدينة عمورية، فننشر في ظلام ليلها صبحا من اللهب، فإذا الليل ضحى، كأن الشمس لم تغب، أو كأن الليل ضاق بثيابه، السود فنزعها، وهنا ينطلق الشاعر، فيَرسُم في لوحات أخَّاذة نابضة الألوان والخطوط – ألسنةَ اللهب، وقد أحالتْ ليلها ضياءً، فيَخال الرائي أن الشمس لا تزال بازغةً في الأُفق، ويشاهد على ضوئها جثثَ تسعين ألفًا من جنود الأعداء وقادتهم.

رمى بك الله برجيها فهدَّمها  ولو رمى بك غير الله لم تصبِ

**معنى البيت:** تحقق النصر بإرادة الله عز وجل، واستطعت تدمير دولة الكفر؛ لأنك كنت مع الله عز وجل، ولو اعتمد على غير الله لما تحقق هذا النصر المبين.

**الفكرة الرابعة:** الإشادة بالخليفة المعتصم الأبيات من: (١١-١٣)

تَدبيرُ مُعتَصِمٍ بِاللَـهِ مُنتَقِمٍ  لِلَّـهِ مُرتَقِبٍ في اللَـهِ مُرتَغِبِ

**معنى البيت:** يصف الشاعر المعتصم بأنه منتقم أي أنه ينتقم، ويأخذ ثأر المسلمين، وأنه مرتقب أي منتظر للنصر، مرتغب أى أنه راغب في رضا الله وجزائه، ولا أحد يقرأ هذا البيت الأخير مرة، إلا ويخيَّل أبا تمام يجأَر بأعلى صوته مِن فرط حماسته وإعجابه بهذا النصر العظيم، الذي وفَّق الله إليه أميرَ المؤمنين المعتصم بالله، وهو يَملأ فمه بهذه التقسيمات الموسيقية المدوية: "معتصم بالله، منتقم لله، مُرتغب في الله"، (وقد تكون هكذا: "بالله منتقم، لله مرتغب، في الله مرتقب"، وكلا التقسيمين أَحلى من الآخر، وقد

أخذت الأرض والسماوات جلجلة اسم الذات الإلهية التي منها استمداد النصر وإليها الملاذ.

لَم يَغزُ قَومًا وَلَم يَنهَض إِلى بَلَدٍ إِلا تَقَدَّمَهُ جَيشٌ مِنَ الرُعَبِ

**معنى البيت:** يصف شجاعة المعتصم بأنه كان دائم الغزو والحروب، يقود جيشا ضخما يبث الرعب في نفوس الأعداء، والقصيدة كما يقال: هي في مدحِ المعتصم، ولكن انظر كيف يكون المديح، إنه ليس مديح النفاق والكذب، بل مديح يعرف حدوده، فنُعجَب نحن به مِن ثَمَّةَ إعجابًا لا يَعرِفُ الحدودَ.

خَليفَةَ اللَهِ جازى اللَهُ سَعيَكَ عَن جُرثومَةِ الدينِ وَالإِسلامِ وَالحَسَبِ

**معنى البيت:** يدعو الشاعر للخليفة بالخير؛ لأنه بالفتح ينشر الإسلام ويعلي من قوته شأنه، وفضلًا عن هذه الفخامة التي تُسربل القصيدة، ثَمَّةَ الوحدة الفكرية والنفسية التي تشد أبياتها كلها بآصرةٍ وثيقة، فتبدو للعين بناءً متينًا صُلبًا راسخًا، فالأبيات لا تعالج موضوعًا آخر غير هذا الفتح المجيد الذي تَمَّ على يد البطل الصِّنديد الخليفة المعتصم بالله الذي استحقَّ بحقٍّ أن يدعوَ له شاعرنا المُفلق.

إِنْ كان بين صُروفِ الدَّهرِ مِن رَحِمٍ مَوصولةٍ أو ذِمامٍ غيرِ مُنْقَضِبِ
فَبَيْنَ أيَّامِك اللاتي نُصِرْتَ بِهـا وبَيْنَ أيَّامِ بـــــدرٍ أقرَبُ النَّسَبِ

فإننا لا نَملِك إلا الإعجاب بهذه البصيرة التمَّاميَّة التي التَقَطتْ خيط هذا النَّسَب الكريم العظيم، أتدري ماذا يقول الله في قرآنه المجيد عن الانتصار الساحق الذي أحرزه الرسول والمسلمون في بدر الكبرى؟ إنه سبحانه يقول: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧]، فقارِن بين قول الحق هنا سبحانه وبين بيتي أبي تمام السابقين، تجد المعنى واحدًا؛ لأن أبا تمام قد استلَهم الآية الكريمة.

أَبْقَتْ بَني الأصْفَرِ المِمْراضِ كاسْمِهِمُ صُفْرَ الوجُوهِ وجلَّتْ أَوْجُهُ العَرَبِ

**معنى البيت:** أن هذا النصر العظيم الذى أحرزه الخليفة المعتصم بالله، قد أذل الروم–بنو الأصفر– وجعلهم مرضى، صفر الوجوه كاسمهم، وعزَّ به العرب، فصارت وجوههم مشرقة مجلوة.

والقصيدة كما نرى وَحدةٌ واحدة في موضوعها وجوِّها النفسي، بما فيها مِن تهكُّمٍ واخزٍ وشماتة مُحرقة وفرحة طاغية، حتى إن الشاعر ليتلاعب في وسط هذه البهجة الغامرة باللغة تلاعبًا، وهو تلاعُبٌ يَعكِس ما كان يُحِسُّه الشاعر والأمة الإسلامية آنئذٍ من مشاعر الابتهاج والعزة والفخار، وحتى إن خياله ليَسُحُّ عليه بالصور المدهشة التي تدل على فحولة وأصالة واقتدار، فإذا كان التلاعب بالمحسنات البديعية مذمومًا في بعض المواقف لما فيه من تكلُّفٍ، فإن بديع أبي تمام هنا هو البديع بعينه، فالطِّباقات والتوريات والجناسات هنا، ليست حِيَلًا بهلوانية، بل زخارف مُوفقة في هذا العيد السعيد، وهي زخارف أتى بها الشاعر للزينة ولمعنى آخر غير الزينة، هو التهكُّم على جهل هؤلاء المنجِّمين وادعائهم وكذبهم.

**********

# المصادر والمراجع

- **ابن حجة الحموى:** خزانة الأدب وغاية الأرب، ت: عصام شعيتو، ط/ دار ومكتبة الهلال، سنة ١٩٨٧.
- **ابن خلكان:** وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت: د. إحسان عباس، ط/ دار صادر- بيروت، سنة ١٩٧١.
- **ابن رشيق القيروانى:** العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت: محمد محيى الدين عبدالحميد، ط/ دار الجيل- بيروت، سنة ١٩٧٢.
- - **أبو العباس محمد بن يزيد المبرد:** الكامل فى اللغة والأدب، ت: محمد أحمد الدالى، ط/ مؤسسة الرسالة- بيروت، سنة ١٩٨٦.
- **الثعالبى:** ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، ت: محمد إبراهيم، ط/دار المعارف، سنة ١٩٨٥.
- **الحصرى:** زهر الآداب وثمر الألباب، ت: زكى مبارك، ط/ دار الجيل- بيروت،(د.ت).
- **د.شوقى ضيف:** تاريخ الأدب العربي "العباسي والأندلسي"، ط/ دار المعارف-القاهرة.

_____ فصول فى الشعر ونقده، ط٢/ دار المعارف-القاهرة.

- **د. طه حسين:** من حديث الشعر والنثر، ط/ دار المعارف-القاهرة.
- **عبدالقاهر الجرجانى:** دلائل الإعجاز، ت: محمد محمود شاكر، ط٢/ مكتبة الخانجى- القاهرة، (د.ت).
- **د.عبدالمنعم خفاجى:** الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى، ط/ دار الجيل-بيروت، سنة ١٩٩٠.

- **على بن عبدالعزيز الجرجانى:** الوساطة بين المتنبى وخصومه، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، على محمد البجاوى، ط/ دار القلم- بيروت، (د.ت).
- **محمد حسين:** الهجاء والهجَّاءون فى العصر الجاهلى، ط/ دار النهضة العربية – بيروت، سنة ١٩٩٩.
- **د.مصطفى الشكعة:** الشعر والشعراء فى العصر العباسى،ط/ دار العلم للملايين- بيروت، سنة ١٩٩٣.

**ويمكن أن تطلع على الأدب الأندلسي من خلال المؤلفات الآتية:**

-**الأدب الأندلسي** من الفتح إلى السقوط، لأحمد هيكل.

-**الأدب الأندلسي** (عصر الإمارات) لإحسان عباس.

-**الأدب الأندلسي** عصري الطوائف والمرابطين لأحسان عباس.

**********

# الفهرست


| م | الموضوع | الصفحة |
|---|---|---|
| ١ | المقدمة | ٤ |
| ٢ | الباب الأول: حول الأدب العباسي | ٦ |
| ٣ | الباب الثاني: حول الأدب الأندلسي | ١٣٤ |
| | نماذج من الشعر العباسي والأندلسي | ١٥٧ |
| ٤ | المصادر والمراجع | ١٧٩ |
| ٥ | الفهرست | ١٨١ |


تمت بحمد الله